البلاغة القرآنية
في
آيات الوفاء

دكتور

محمد مصطفى محمود ليلة

مدرس البلاغة والنقد في كلية الدراسات
الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة
جامعة الأزهر

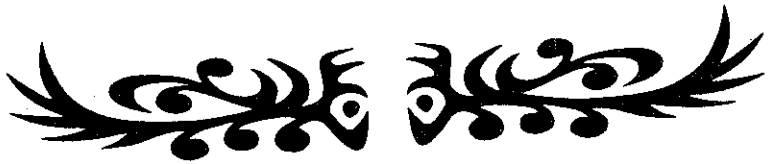

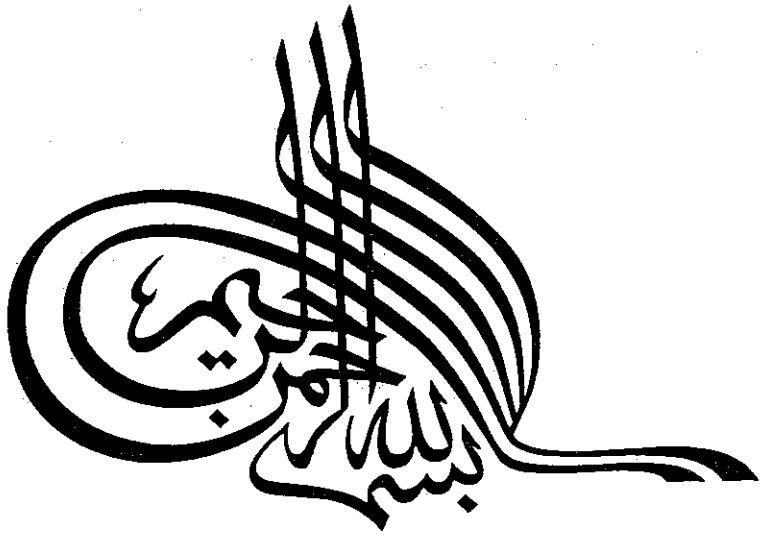
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب تبياناً وتبصرة لأولى الألباب، والصلاة والسلام على من أرسله ربه بالبيان، وعلمه القرآن، وآتاه جوامع الكلم وأسرار الفرقان، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان... وبعد :

فالقرآن الكريم معين لا ينضب للدراسة والبحث، وستظل لغته توحي للدارسين بالبحوث الأصيلة، ولا عجب فهو كتاب الله الخالد، جعله الله دستور الأمة ومنهاجها الأقوم، وبه تنشر الفضيلة ويعم الخير، والبحث حول بلاغته وبيان أسراره من أعظم القربات وأفضل الطاعات، وكل باحث يستخرج منها بقدر ما يفتح الله به عليه، فلا يحيط بمكنون أسراره، وإعجازه وبيانه إلا من أنزله – سبحانه.

ولذا كان اختياري لهذا الموضوع " البلاغة القرآنية في آيات الوفاء " لما في هذه الآيات من حسن النظم، وجودة السبك، وبديع التراكيب، وجمال التعبير، وبراعة التصوير في بيان هذا الخلق الفضيل، الذي له عظيم الأثر في الفرد والمجتمع.

وقد انتظم البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة.

أما المقدمة: ففيها أهميته، وخطته، والمنهج الذي تسير عليه الدراسة.

وأما التمهيد: ففيه التعريف بالوفاء، وحديث القرآن عن الوفاء.

المبحث الأول: الوفاء بالعهد.

المبحث الثاني: الوفاء بالكيل.

المبحث الثالث: الوفاء بالنذر.

المبحث الرابع: الوفاء الأ...

وأما الخاتمة: ففيها أهم نتائج البحث، ثم أعقبتها بفهرس للمراجع وآخر لموضوعات البحث.

وقد اتبعت في هذا البحث المنهج التحليلي، فقمت بجمع الآيات التي وردت فيها مادة " وفى " أو إحدى مشتقاتها، ثم عرضت لكل آية منها بذكرها، وبيان معناها العام، وسبب نزولها إن وجد، ثم بيان أسرار النظم وبلاغته، دراسة كلية تهتم بالسياق وتآزر الألوان البلاغية المختلفة في بيان المعنى المراد.

والله أسأل أن أكون قد وفقت في اختيار الموضوع ودراسته، وسلامة نتائجه، وأن يغفر لي الزلات، ويتجاوز عن العثرات، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، ونفعني به، ويرزقني فهم كتابه والوقوف على أسراره، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

دكتور / محمد مصطفى
محمود ليلة
مدرس البلاغة والنقد
في الكلية

التمهيد

ويتضمن:

١ ــ تعريف الوفاء.

٢ــ حديث القرآن عن الوفاء.

تعريف الوفاء

الوفاء في اللغة:

مصدر قولهم: وَفَى يفي وَفَاءً، والوفاء: إتمام العهد وإكمال الشرط، ويقولون منه – أيضاً –: أوفيتك الشيء إذا قضيته إياه وافياً.(١)

وقال الجوهري: الوفاء ضد الغدر، يقال: وَفَى بعهده وأوفى بمعنى، ووَفَى الشيء وُفِيَّاً على فُعُول أى تم وكثر، والوفي الوافي...وتوفّاه الله: قبض روحه. (٢)

وقال الراغب: الوافي: الذى بلغَ التمام، يقال: درهم وافٍ وكيل وافٍ قال تعالى:﴿ وَأَوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ الإسراء: ٣٥، ووفى بعهده وأوفى: إذا تمم العهد ولم ينقض حفظه، واشتقاق ضده وهو الغدر يدل على ذلك وهو الترك، والقرآن جاء بأوفى قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ البقرة: ٤٠، وتوفية الشيء: بذله وافياً، واستيفاؤه تناوله وافياً، وقد عبر عن النوم والموت بالتوفي. (٣)

وفى اللسان: يقال وفى بالشيء وأوفى بمعنى واحد، وأوفى الكيل: أتمه ولم ينقص منه شيئاً، والموافاة: أن توافى إنساناً فى

---

(١)مقاييس اللغة :مادة "وفى" لأبى الحسين أحمد بن فارس،ط دار إحياء الكتاب العربي.

(٢)الصحاح : " وفى ". لإسماعيل بن حماد الجوهري، تح/أحمد عبد الغفور، القاهرة، ١٩٨٢م.

(٣)المفردات في غريب القرآن: مادة "وفى" للراغب الأصفهانى، ط. دار المعرفة – بيروت .

ميعاد.. وكل شيء بلغ تمام الكمال فقد وفى وتم، ويقال أوفيته حقّه وفيته أجره. [1]

لفعل يستخدم ثلاثياً ورباعياً وهما بمعنى، ولم يرد في القرآن إلا لصيغة الرباعية، ومصدر الثلاثي يكون على وزن فعال أو فعول، المادة تدور حول الإتمام والإكمال.

وفاء في الاصطلاح:

" هو ملازمة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخلطاء " [2]، يقول الجاحظ: الوفاء: هو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه يرهنه به لسانه، والخروج مما يضمنه وإن كان مجحفاً به، فليس يُعَد فياً من لم تلحقه بوفائه أذية وإن قلت، وكلما أضر به الدخول تحت ما كم به على نفسه كان ذلك أبلغ في الوفاء. [3]

أي أن الإنسان يصبر على أداء ما يعد به غيره ويبذله من تلقاء نفسه، ويرهنه به لسانه حتى وإن أضرّ به ذلك.

والوفاء هو ذلك الخلق الرفيع والقيمة الإنسانية والأخلاقية عظيمة، فهو يرسى دعائم الثقة في الأفراد، ويؤكد أواصر التعاون في مجتمع، والناس مضطرون إلى التعاون، ولا يتم تعاونهم إلا بهذا الخلق عظيم، وللوفاء أنواع كثيرة وذلك بحسب الموفى به: فقد يكون بالعهد،

---

[1]) لسان العرب: مادة "وفى" لابن منظور، ط. دار المعارف بالقاهرة.

[2])التعريفات: مادة "وفى" للشريف الجرجانى، ط. مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر..

وقد يكون بالعقد، وقد يكون بالنذر وقد يكون بالكيل، وقد يكون بالوعد وبالجزاء...

حديث القرآن عن الوفاء

تحدّث القرآن الكريم عن فضيلة الوفاء فى مواطن كثيرة، ولعل أشرف مكانة لهذا الخلق أن يصف الحق تبارك وتعالى – ذاته العلية بالوفاء حيث قال: ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ التوبة: ١١١، أي: أنه لا أحد أوفى بعهده، ولا أصدق فى إنجاز وعده من الله تعالى، فهو القادر وهو المتمكن من إنجاز وعده، فهو أصدق الواعدين وأوفى المعاهدين.

والله – تعالى – يوفّى كل إنسان حقه سواء أكان مستقيماً أم منحرفاً، صالحاً أم طالحاً فكل واحد له ما يستحقه ويليق به حيث يقول: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ الزمر: ٧٠، ونوه القرآن بسمو فضيلة الوفاء حين جعلها صفة الأنبياء – عليهم السلام – فقال: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ النجم: ٣٧. وذلك لأنه بذل غاية جهده فى كل ما طولب به من ربه.

وبين لنا القرآن أن الوفاء صفة المؤمنين الأخيار حيث قال:﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الميثَاقَ ﴾ الرعد: ١٩، ٢٠ وأمرنا بالوفاء بالعهد فقال: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ البقرة: ٤٠ وجعل الفاء بالعهد سبيل الوصول إلى الأجر العظيم من الله تعالى فقال: ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ الفتح: ١٠، والوفاء بالعهد يشمل الوفاء بمختلف أنواع

هد بين الناس سواء أكان عهداً مادياً أم معنوياً، حالاً أم مؤجلاً شمل – أيضاً – الوفاء بعهد الله تعالى.

والقرآن يخبرنا أن الوفاء أنواع: فهناك الوفاء بالعهد الذى يقول ه: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ البقرة: ١٨٨، وهناك الوفاء ذر الذي المائدة: بقوله:﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ تَطِيراً﴾ الإنسان:٧ وهناك الوفاء بالكيل الذى يشير إليه بقوله: ﴿ وا الكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ المُخْسِرِينَ ﴾ الشعراء: ١٨١، وهناك الوفاء عقود الذى يشير إليه بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ... ﴾ ائدة: ١.

وقد أمر الله – عز وجل – عباده بأن يتخذوا من فضيلة الوفاء عاً وحصناً وزينة لنفوسهم وأخلاقهم فقال: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ ج: ٢٩ وقال ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ النحل: ٩١، وقال: ﴿ فُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ ﴾ الإسراء: ٣٥.

ومن سمو مكانة الوفاء فى حديث القرآن الكريم أن الله – انه – جعل الوفاء جزاءً لمكارم الأعمال والخصال فقال: ﴿ وَمَا وا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ البقرة: ٢٧٢، وقال: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن ءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ الأنفال: ٦٠ وقال ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى بِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الزمر: ١٠.

المبحث الأول

الوفاء بالعهد

الوفاء بالعهد خلق محبب، وهو ركن من أركان بناء المجتمع ورقيه، وعلامة على صحة إيمان الفرد وصلاح المجتمع، وهو الضمان لبقاء عنصر الثقة فى التعامل بين الناس، وبدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع، ولا تقوم إنسانية.. وقد شدد الإسلام فى مسألة الوفاء بالعهود فلم يتسامح فيها أبداً، لأنها قاعدة الثقة التى ينفرط بدونها عقد الجماعة ويتهدم، وقد جعل الله العهد من الإيمان وصيره قواماً لأمور الناس، والناس مضطرون إلى التعاون، ولا يتم تعاونهم إلا بمراعاة العهد والوفاء به، والآيات القرآنية هنا لا تقف عند حد الأمر بالوفاء والنهى عن النقض، إنما تستطرد لضرب الأمثال، وتقبيح نكث العهد، وقد وردت آيات كثيرة تحض عليه وتبين جزاءه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ البقرة: ٤٠ ففي هذه الآية يثير الحق – سبحانه فى بنى إسرائيل شعور العرفان بالجميل عند ذكر نعمه التى أنعم بها عليهم، وهذا العرفان بالجميل يدفعهم إلى الوفاء بالعهد.

<u>أسرار النظم وبلاغته:</u>

استهلت هذه الآية بنداء بنى إسرائيل على طريقة نداء المضاف، لما لهذه الإضافة من مزية لها فضل تعلق بما نودي المخاطبون لأجله، فهم مأمورون بالدخول فى الإسلام، وإتباع النبي، فناداهم بأحب أسمائهم، وأشرف أنسابهم، فالتعريف بالإضافة فى قوله: " يَبَنِي إِسْرَائِيلَ " يفيد التشريف والتعظيم، وهؤلاء القوم ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه،

وأنهم صفوة خلقه، وهم وإن كانوا كذلك فهذا يستلزم قربهم من الله سبحانه، وقربهم هذا يقتضى مناداتهم بأداة النداء الموضوعة للقريب وهى " الهمزة " إلا أن الحق – سبحانه – ناداهم بـ " يا " الموضوعة للبعيد ليبين افتراءهم وبعدهم عن تعاليمه وجحودهم لنعمه، وفى قوله " بنى " مجاز مرسل، علاقته الجزئية، فهذه اللفظة خاصة بجماعة الذكور أولاً، وبأبناء الرجل من صلبه ثانياً، وهى هنا تشمل الذكور والإناث، وتشمل جميع بنى إسرائيل ". (١)

وقوله ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ الأمر على حقيقته وهو كناية عن إرادة الشكر، فذكر النعمة مراد به لازم الذكر، وهو طاعة مانحها – عز وجل – واستعظامها، والاعتداد بها، وعدم الإخلال بشكرها (٢)، وعدل عن قوله " اشكروا " لأن هذه النعمة قد أنعم الله بها على أسلافهم من قبل كالإنجاء من فرعون وعذابه، ومن الغرق، وعفو الله عنهم بعد اتخاذهم العجل، وتوبته عليهم، وغير ذلك كثير، فناسب أن يذكّر بذلك الأخلاف، فإذا هم ذكروا ذلك وعلموا أن نعم الله على أسلافهم نعم عليهم يكون شكر الله بعد ذلك نابعاً من قلوبهم، وفى أمرهم بتذكر النعمة دلالة على أنهم نسوها بالكلية، ولم تخطر لهم ببال، لا أنهم أهملوا شكرها وفقط. (٣)

(١) ينظر روح المعاني : ٢٤٢/١ للعلامة شهاب الدين الألوسى، ط. إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) ينظر الكشاف : ٦٥/١ للعلامة الزمخشري، ت: ٥٣٨هـ، ط. دار الفكر.

(٣) ينظر تفسير أبى السعود : ٩٤/١ لأبى السعود العمادي، ت: ٩٥٠هـ، ط. دار المصحف – القاهرة.

والتعريف بالإضافة فى قوله " نِعْمَتِيَ " يدل على شرف النعمة وعظمها وعلو قدرها وشمولها للنعم التى أنعم الله بها عليهم وعلى أسلافهم، والتقييد بالوصف فى قوله ﴿ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ فيه امتنان عليهم بتذكيرهم بنعمه عليهم، وحث لهم على شكرها، والتعبير بالماضي في قوله ﴿ أَنْعَمْتُ ﴾ لبيان أن هذه النعمة قد كانت لهم من الله تعالى، فلا يستطيعون إنكارها، فينبغي أن يكون فى تذكيرهم بها مسارعة إلى الإيمان والامتثال لأوامر الله والوفاء بعهده.

وتقديم الأمر بذكر النعمة على الأمر بالوفاء بالعهد من باب تقديم التخلية على التحلية، وافتتاح خطابهم بهذا التذكير تهيئة لنفوسهم إلى تلقى الخطاب بسلامة طوية وإنصاف (١)، فقال ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ وفى قوله " أُوفِ " مشاكلة حيث سمي وصول الثواب إليهم وفاء لوقوعه فى صحبة قوله " أَوْفُوا " وكذا فى قوله: " بِعَهْدِي " حيث سمي ثواب الوفاء بالعهد عهداً لوقوعه فى صحبة العهد ، وكان لأسلوب المشاكلة الأثر الكبير فى بيان مراد الحق – سبحانه – لما اشتمل عليه هذا الأسلوب من ترغيب فى الوفاء بالعهد ، وترهيب وتخويف من عاقبة الغدر به .

ويبين أبو حيان – رحمه الله – فى تفسيره أثر المشاكلة فى توكيد المعنى، وقد سماها مقابلة يقول: " والذي يظهر – والله أعلم – أن المعنى: طلب الإيفاء بما التزموه لله تعالى، وتسمية إنجاز ما وعدهم به

(١) ينظر التحرير والتنوير: ٤٥٢/١ للشيخ/ محمد الطاهر ابن عاشور، ط دار سحنون للنشر التوزيع –تونس

عهداً على سبيل المقابلة إبراز لما تفضل به – تعالى – في صورة المشروط الملتزم، فتتوفر الدواعي على الإيفاء بعهد الله تعالى ". (١)

" وَأَوْفُوا " هو فعل مهموز من " وفى " المجرد، وأصل معنى وفى: أتم الأمر، تقول: وفيته حقه، ولما كان المجرد متعدياً للمفعول ولم يكن في المهموز زيادةٍ تعدية للتساوي بين قولك وفيته حقه وأوفيته حقه تعينت الزيادة لمجرد المبالغة في التوفية ". (٢)

ولذلك لما كان العهد عبارة عن التزامات نحو الحق سبحانه ونحو خلقه، شأنها أن تنقضي شيئاً فشيئاً ناسب أن يكون الفعل مأخوذاً من " وفى " الذى يدل على انقضاء الفعل شيئاً فشيئاً، وذلك يدل على بلاغة النظم القرآنى ودقته في تخير الألفاظ التى تؤدى المعنى المطلوب في سياقها، فلكل كلمة بحر تسبح فيه، ولا تحل كلمة محل أخرى. وفي قوله " عَهْدِي " استعارة تصريحية حيث شبهت تكاليف الله تعالى بالعهد بجامع وجوب الالتزام والمحافظة في كل، ثم حذف المشبه، واستعير المشبه به للمشبه، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية، وكذا في قوله " عَهْدِكُمْ " استعارة تصريحية، حيث شبه وعد الله لهم بالثواب بالعهد بجامع الالتزام وعدم الخلف في كل، ثم حذف المشبه، واستعير المشبه به للمشبه، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، ويمكن حمل الاستعارة على التمثيلية حيث شبهت الهيئة الحاصلة من

(١)ينظر البحر المحيط: ١٧٥/١لأبى حيان الأندلسى، ط. دار الفكر.بيروت،وتحريرالتحبير: ٢٥٩ لابن أبى الإصبع المصري،ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،وبديع القرآن المجيد: ٩٧.

(٢)التحرير والتنوير: ٤٥٢/١

قولهم " لما أمرهم الله به وأن لا يقصروا في العمل، ومن وعد الله إياهم على ذلك بالثواب بهيئة المتعاهدين على التزام كل منهما بعمل للآخر ووفائه بعهده في عدم الإخلال به، فاستعير لهذه الهيئة الكلام المشتمل على قوله ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ (١)، وفيه – أيضاً – مشاكلة. وقوله: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ أسلوب قصر، قصر صفة على موصوف ، حيث قصر صفة الرهبة على الله تعالى، أي لا ترهبوا إلا إياي، وطريقه التقديم حيث قدّم المفعول " إِيَّايَ " على الفعل " ارْهَبُونِ " واختير من طرق القصر التقديم دون النفي والاستثناء ليكون الحاصل بالمنطوق هو الأمر برهبة الله تعالى، ويكون النهى عن رهبة غيره حاصلاً بالمفهوم، فإنهم إذا رهبوا حرصوا على الإبقاء بالعهد، ولما كانت رهبتهم تمنعهم من الإيفاء بالعهد أدمج النهى عن رهبة غير الله مع الأمر برهبة الله تعالى في صيغة واحدة. (٢) وقوله " إِيَّايَ " ضمير منفصل – في محل نصب – ونصب بفعل محذوف يفسره الظاهر بعده – والحذف ضرب من الإيجاز – والتقدير: وإياي ارهبوا فارهبون.

وقوله " وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ " آكد من قولك: إياي ارهبوا، والتقديم إذا اقترن بالفاء كان فيه مبالغة، لأن الفاء مؤذنة بشرط مقدر، ولما كان هذا الشرط لا دليل عليه إلا بالفاء تعين تقديره عاماً والمعنى: وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم، ومهما يكن شيئاً فارهبون، وحذف المفعول لمراعاة

(١)المرجع السابق : ٤٥٣/١ .

(٢) ينظر التحرير والتنوير : ٤٥٤/١

صلة، والأمر أفاد التهديد والتخويف من الله تعالى ومن عذابه وذلك من لم يف بعهده ويشكر نعمته. (١)

وفى الآية تشابه أطراف حيث ختمت بالأمر بمخافته بعد أن هم بذكر النعمة والعمل على شكرها، وأتبع ذلك بالأمر بالوفاء هد، وهذه الأمور تحتاج إلى الرهبة والخوف من الله تعالى.

وبعد أن ذكر الحق – سبحانه في آية أخرى – أن فى أهل اب فريقين : فريقاً يؤدى الأمانة تعففاً عن الخيانة، وفريقاً لا يؤديها للين بإباحة الخيانة فى دينهم، فليس عليهم فى ظلم العرب حرج الفتهم لهم فى دينهم وادعوا – لعنهم الله– أن ذلك فى كتابهم، فرد عليهم قولهم وكذبهم وأنهم يتحملون إثم ذلك بقوله بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران : ٧٦.

رار النظم وبلاغته :

قوله " بَلَى " حرف جواب أبطل ما ادعوه من إباحة الخيانة فى هم ، وقوله " مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى " استئناف مقرر للجملة التى ت " بَلَى " مسدها أي : من أوفى بعهده واتقى الكفر والخيانة ونقض هد فليس من الكاذبين أو فإن الله يحبه ، والضمير فى قوله " بِعَهْدِهِ " د على الله تعالى ، وأفاد تعريف العهد بالإضافة تفخيمه وتعظيمه ، يان سوء عاقبة ومآل من نقضه ، ويجوز أن يعود على الموفى

ومتقى الكفر والخيانة ونقض العهد ، فالعهد مصدر يضاف إلى فاعله ومفعوله . (١)

وقوله " فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " تأكيد لمضمون الجملة قبلها ، وأكده بأكثر من مؤكد بـ " إن " واسمية الجملة لتأكيد حب الله ورضاه عن المتقين ، وأيضاً قدم المسند إليه لفظ الجلالة " اللَّهَ " على خبره الفعلي " يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " لتأكيد هذا المعنى وتقويته ، فالله يجعلهم محل حبه وعنايته ورحمته فى الدنيا والآخرة ، وفيه تعريض بهذا الفريق الذى يخون الأمانة ، فهم ليسوا من أهل التقوى ، والوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى ، ومن ثم لا يتغير ولا يتبدل فى التعامل مع المسلمين أو مع غيرهم ، فالإنسان يتعامل مع الله تعالى ، فهو المطلع عليه ، والمجازى له على كل ما يفعله بصرف النظر عمن يتعامل معهم من أهل دينه أو من غيرهم .

" وهذه نظرية الإسلام الأخلاقية بصفة عامة ، فى الوفاء بالعهد وفى سواه من الأخلاق : التعامل هو أولاً تعامل مع الله ، يلحظ فيه جانب الله ، ويتجنب به سخطه ، ويطلب به رضاه ، فالباعث الأخلاقي ليس هو المصلحة ، وليس هو عرف الجماعة ، ولا مقتضيات ظروفها القائمة ... بهذا يضمن الإسلام تطلع البشرية الدائم إلى أفق أعلى من الأرض ، واستمدادها القيم والموازين من ذلك الأفق السامق الوضيء.(٢)

---

(١)ينظر فتح القدير: ٣٥٣/١، للإمام الشوكانى، ط الحلبي بمصر، وتفسير القرطبى: ١١٩/٤.

(٢)ينظر فى ظلال القرآن: ٦١٨/١، للشيخ/ سيد قطب، ط دار الشروق

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ
ت لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ
اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ المائدة : ١ فقد ابتدأت السورة بنداء المؤمنين
ب الأوصاف إليهم، وهى صفة الإيمان ، وذلك ليوفوا بالعقود التى
هم وبين الله – تعالى – والتي بينهم وبين الناس ، والتي ألزموا بها
سهم ، ثم بين لهم أنه أحل لهم الأنعام كلها إلا ما بينه لهم ونص على
يمه ، وكذا الصيد حال الإحرام ، وهذا حكمه تعالى ، يحكم بما يريد
مة يعلمها ، فلا اعتراض على حكمه .

رار النظم وبلاغته :

قوله " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ " نداء للمؤمنين بأحب
فات إليهم، وهى صفة الإيمان ، وهذا من حسن الابتداء ، وذلك
ب انتباههم وتهيئتهم إلى ما سيرد بعد هذا النداء من أمر أو نهى
تثلون لهذا الطلب ، وقوله " أَوْفُوا " الإيفاء هو إعطاء الشئ وافياً ،
غير منقوص ، ولما كان تحقق ترك النقص لا يحصل فى العرف إلا
يادة على القدر الواجب ، صار الإيفاء مراداً منه عرفاً العدل ، والأمر
ى حقيقته لمطلق الطلب وجوباً أو ندباً ، ويدخل فيه اجتناب المحرمات
كروهات " . (١)

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٧٤

و " الْعُقُود " جمع : عقد وأصل العقد : الجمع بين أطراف الشئ ، ويستعمل ذلك فى الأجسام الصلبة كعقد الحبل ، وعقد البناء ، ثم يستعار ذلك للمعاني نحو عقد البيع ، والعهد وغيرهما ... . (١)

والمراد بالعقود : ما يعم جميع العهود التى ألزمها الله – تعالى – عباده وعقدها عليهم من التكاليف ، والأحكام الدينية ، وما يعقدونه فما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن (٢) ، وبذلك يكون التعريف فى " الْعُقُودِ " للجنس فيشمل كل العهود ، وفيها استعارة أصلية تصريحية حيث شبه العهد الموثق بعقد الحبل ونحوه ، ثم حذف المشبه ، وتنوسي التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فيه ، ثم استعير المشبه به للمشبه ، وذلك على سبيل الاستعارة الأصلية ، وقد أوضحت الاستعارة المعنى وبينته ، وأبرزت الأمر المعنوي في صورة الشئ الحسي المدرك بالحواس ، وقد أمر بالإيفاء بالعقود أولاً على وجه الإجمال ، ثم شرع فى تفصيل الأحكام التى أمر بالإيفاء بها ، وبدأ بما يتعلق بضروريات معايشهم فقال : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ ﴾ والبهيمة كل ذات أربع ، وإضافتها إلى الأنعام للبيان ، وأفردت لإرادة الجنس أي : أحل لكم أكل البهيمة من الأنعام ، وهى الأزواج الثمانية المعدودة فى سورة الأنعام وألحق بها الضباء وبقر الوحش ونحوهما . وقيل : هي المرادة بالبهيمة هنا لما بينهما من المشابهة فى

(١) ينظر: فتح القدير: ٢/ ٤. وحاشية الشهاب: ٣/ ٤١٢، ط. دار صادر – بيروت.

(٢) المفردات: " عقد "

الاجترار وعدم الأنياب كأنه قيل : أحلت لكم البهيمة الشبيهة بالأنعام . وبنى الفعل للمجهول لتركيز الاهتمام على هذه النعمة التى أنعم بها عليهم من إحلال بهيمة الأنعام وما فيه منفعة لهم ، وقدم الجار والمجرور " لَكُم " لإظهار كمال العناية بالمقدم وذلك لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر وهو بهيمة الأنعام ، فإذا وقع تمكن فى النفس فضل تمكن ، وقوله : " إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ " أي : إلا ما يتلى عليكم تحريمه أو إلا محرم ما يتلى عليكم . وقوله " وَأَنْتُمْ حُرُمٌ " جملة حالية ، وهى قيد تبين أن الصيد إنما يحرم عليهم فى حال كونهم محرمين بالحج والعمرة أو أحدهما ولذا يقول الإمام الرازي – رحمه الله : قوله " وَأَنْتُمْ حُرُمٌ " يشتمل على الوجهين : فيحرم الصيد على من كان فى الحرم ، كما يحرم على من كان محرماً بالحج أو العمرة وهو قول الفقهاء " [1] وصرح فى هذه الآية بذكر المضاف وهو" بَهِيمَةُ " وحذف فى آية الحج ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ ﴾ الحج : ٣٠ وذلك لأن المقصود فى الآيتين مختلف ، فاسم الأنعام إنما يقع على ما ذكر فى آية سورة الأنعام من الأزواج الثمانية فى قوله ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ .... ﴾ ثم قال ﴿ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ البَقَرِ اثْنَيْنِ .... ﴾ الأنعام : ١٤٣ ، ١٤٤ ، وهذه أصناف أربعة : الضأن والماعز والإبل والبقر وبحسب التذكير والتأنيث تكون ثمانية . ولما كانت آية الحج منوطة بما أمربه الحاج في قوله﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيقِ﴾ الحج:٢٩.

(1)ينظر التفسير الكبير:١٢٧/١١ للإمام فخر الدين الرازي ط بيروت، وتفسير أبي السعود:٢/٣.

والأمر بتعظيم تلك الحرمات والشعائر الإيمانية فى قوله ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ الحج : ٣٠ وصل بها ما يحل أكل لحمه للمحرم حال إحرامه فقال: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ ﴾، ولم يكن ليلائم هذا الموضع ما ورد فى آية المائدة لأن المراد ببهيمة الأنعام الضباء والبقر الوحشي، وآية المائدة من آخر ما نزل، وقد تضمنت السورة متممات من الأحكام كآية الوضوء، والتيمم، وتفاصيل الصيد ... وغير ذلك، وأحكام هذه السورة كثيرة ومحكمة غير منسوخة، وفيها ورد ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... ﴾ فناسب هذا ذكر حلِّية بهيمة الأنعام إلحاقاً لها بالأنعام فوضح التناسب في وضع كل كلمة فى القرآن موضعها وفى سياقها ، وإن عكس لم يكن ليناسب . [1]

وقوله " إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ " أي : أن الله يقضى فى خلقه ما يشاء من تحليل ما يريد وتحريم ما يريد ، وإيجاب ما يريد وغير ذلك من أحكامه وقضاياه، فافعلوا ما أمركم به وانتهوا عما نهاكم عنه . [2]

وفصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فكأن القارئ أو المستمع يثير سؤالاً لماذا يحرم الله الصيد على المحرم ؟ وما حكمة ذلك؟ وتصلح هذه الجملة أن تكون جواباً عن هذا السؤال، فجاء تذييل الآية مناسباً للقيد بالحال ومعللاً له، وأكدت

(1)ينظر المرجع السابق نفسه، وملاك التأويل:٣٦٥/١ وما بعدها، لأحمد بن إبراهيم الغرناطى. ونظم الدرر: ٣٨٥/٢ للإمام البقاعى، ط. دار الكتب العلمية – بيروت.

(2)ينظر مجمع البيان:١٩٦/٣

الجملة بأكثر من مؤكد وقدم المسند إليه على خبره الفعلي لتأكيد إطلاق إرادته تعالى.

وقد اشتملت هذه الآية على أشياء كثيرة وجاءت قمة فى الإيجاز والإعجاز، وقد حكى أن أصحاب الكندي طلبوا منه أن يعمل لهم مثل القرآن ، فاحتجب عنهم أياماً ثم خرج فقال: والله ما أقدر عليه ، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد أمر بالوفاء ، ونهى عن النكث، وحلل تحليلاً عاماً، ثم استثنى استثناء بعد استثناء ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته فى سطرين، ولا يستطيع أحد أن يأتي بهذا إلا فى أجلاد – أسفار . (١)

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ التوبة : ١١١ .

سبب النزول :

ورد فى سبب نزول هذه الآية أنه " لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال: أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم

(١)ينظر المحرر الوجيز: ١٤٥/٢ لابن عطية الأندلسى، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

قالوا: فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا ؟ قال: الجنة قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت هذه الآية . (١)

وهذه الآية تبين صفات المؤمنين المجاهدين الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم من أجل إعلاء كلمة الله، والعقد السخي الذي عقده الله معهم، فهو – سبحانه – خالق الأنفس ، ومالك الأموال ، وهو هنا يشترى الأنفس التى هو خالقها، والأموال التى هو مالكها، فهل بعد ذلك من سخاء وكرم ؟ والمقصود من ذلك تعظيم شأن الجهاد فى سبيله ، والمجاهدون يقبضون هذا الثمن الغالي وهو الجنة ، سواء جاهدوا فقُتلوا أو جاهدوا فقَتلوا، فهم يستحقون الثمن على التلبس بالجهاد الصادق، لا على موت فيه أو حياة، ويا لها من بشرى عظيمة بشرهم بها من إذا عاهد أنجز، وإذا أنجز أجزل، وذلك هو الفوز العظيم . (٢)

أسرار النظم وبلاغته :

قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ أكدّ هذا الخبر للاهتمام به ولتقرير وتوكيد هذه الحقيقة العظيمة الجليلة، وللترغيب فى الجهاد. وعرف المسند إليه لفظ الجلالة " اللَّهَ " بالعلمية لإحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم مختص به دون غيره ، لما فى هذا الاسم من الخصائص والمزايا لجمعه صفات الجلال والكمال. وقدّم على خبره الفعلي " اشْتَرَى .. " للاهتمام به، ولإفادة تقوية الحكم وتوكيده، وهو الصفقة الرابحة المبرمة بين الله – سبحانه – وبين عباده

(١)أسباب النزول للواحدي: ١٥٠، مطبعة الحلبى، القاهرة.

المؤمنين التى تقضى بإثابة الله لهم على جهادهم في سبيله بأنفسهم وأموالهم بالجنة.وفي إسناد الشراء إلى الله- تعالى- إشعار بضمان الثمن وكثرته ووفرته. وفي قوله:" إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ " استعارة تمثيلية تصور جهاد المؤمنين وبذلهم أنفسهم وأموالهم، وإثابة الله لهم على جهادهم وبذلهم بالجنة، تصوره بالبيع والشراء، ترغيباً فى الجهاد وحثاً عليه، ويقول الإمام الزمخشرى – رحمه الله – " مَثَّل الله إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم فى سبيله بالشروى ... " [1] فهنا نفس مبذولة ، ومال مبذول، يقابلهما رضي الله – تعالى – وفضله ، وذلك لمن صحت نيته فى الجهاد، وأكرمه الله بالاستشهاد، حيث صور القرآن الكريم هذه الحالة بما فيها من طرفين متقابلين بصورة البيع والشراء، فالمجاهد بائع نفسه وماله لله، والله مشتر تلك النفس الطاهرة، وذلك المال الزكي. فالمؤمن المجاهد يقدم نفسه وماله عروضاً مبيعة، والله ينعم بالرضوان والجنة ثمناً مبذولاً ، وهذه عملية رابحة فالنفس لا شك ميتة ، والمال زائل أو مُفارِق ، أما الجنة فلا تنال إلا لمن عمل لها كالمجاهدين .

ويمكن جعلها من قبيل الاستعارة التبعية فى قوله " اشْتَرَى " حيث شبه قبول الله لجهاد المجاهدين بالأنفس والأموال بالشراء بجامع النفع الذى يترتب على كل ، وهو الحصول على الثمن وحسن الجزاء . فلا شراء ولا بيع على الحقيقة ، وقد مهدت هذه الاستعارة ورشحت لاستعارة أخرى من جنسها وذلك فى قوله ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي

(1) الكشاف: ٢/ ٢١٦

بَايَعْتُم بِهِ ﴾ فاكتمل بذلك شطر الحسن ، وإنّ هاتين الاستعارتين لتتعانقان ، فما دام الله مشترياً لنفس ومال المؤمنين المجاهدين ، فهم – إذن – بائعون ، فليستبشروا ببيعهم هذا ، ومن أوفى بعهده من الله . [1]

وحمل الاستعارة على التمثيلية أولى وأقرب لاشتمالها على كثير من اللطائف التى لا توجد في غيرها، فهي تصور وعد الله للمؤمنين المجاهدين بصورة عقد بين بائع ومشتر، بائع وهم المؤمنون ومشتر وهو الله سبحانه، على مبيع وهو أنفس المؤمنين وأموالهم، وثمن وهو الجنة ، وتبين أن المؤمنين يستحقون الجنة بمجرد إخلاص نيتهم لله – تعالى – فى جهادهم ، ودخولهم فى ساحة الجهاد، ولا يتوقف ذلك على استشهادهم فى سبيله، فهم يستحقون دخول الجنة بالقتال وإن لم يُقتلوا.

وجمع بين النفس والمال للمناسبة بينهما، فهما أعز ما يملكه الإنسان، وقدّم الأنفس على الأموال لأفضلية الجهاد بالنفس على الجهاد بالمال، ولأهمية الجهاد بالنفس على الجهاد بغيرها – وفى كل فضل – فالإنسان قد يضن بنفسه عن بذلها فى سبيل الله دون ما سواها ، ولأن كل إنسان يملك نفسه ، وقد لا يجد المال الذى يجاهد به، وكأن الله – تعالى – لم يترك عذراً لأحد فى التقاعس عن الجهاد فمن لا يملك المال الذى يجاهد به فى سبيل الله جاهد بنفسه التى بين جنبيه لإعلاء كلمة الله. وقوله ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ أكّد الخبر لضمان حصولهم على الثمن

(1) ينظر التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم: ٢/ ٢٩ ، وخصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية: ٢/ ٣٢٥ ، ٣٢٦، د/ عبد العظيم

وهو الجنة، وقدّم الخبر" لَهُمُ " على المبتدأ " الجَنَّةَ " لإفادة القصر، قصراً حقيقياً، وذلك للمبالغة فى تقرير وتأكيد حصولهم على الثمن، وهم لعلو منزلتهم عند الله – تعالى – كأن الجنة لم تخلق إلا لهم، ولا يدخلها سواهم .

وقوله ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ فصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال، فهي بمثابة بيان لاشتراء الأنفس والأموال ، فكأن سائلاً قال : كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة ؟ وتصلح هذه الجملة أن تكون جواباً عنه. ومضارعية الصيغة في قوله : " يُقَاتِلُونَ " تدل على تجدد واستمرار ذلك منهم كلما دعا داعي الجهاد ، فلا يضنّون بأنفسهم وأموالهم في سبيل إعلاء كلمة الله. والتعريف بالإضافة في قوله: " سَبِيلِ اللَّهِ " يدل على تفخيم وتعظيم السبيل الذى يقاتلون فيه، وتقديم حال القتالية على حال المقتولية للإيذان بعدم الفرق بينهما فى كونهما مصداقاً لكون القتال بذلاً للنفس، والداعي إلى هذا التقديم أن الناس كانوا لا يساوون بين أن يقتل المجاهدُ العدوَّ، وبين أن يُقتل هو، فالاستشهاد أعظم صور الجهاد، فأراد الله أن يبين لهم أن كلا العملين عظيم : القتل للعدو ، والقتل بيد العدو ، وعلى هذا فإن القرآن قدّم الأضعف على الأقوى إشعاراً بتساويهما فى الفضل .. هذا على قراءة حفص، حيث قدّم المبنى للمعلوم " يَقْتُلُونَ " على المبنى للمجهول " يُقْتَلُونَ ". وقرأ حمزة والكسائى بتقديم المبنى للمفعول رعاية لكون الشهادة عريقة فى هذا الباب، إيذاناً بعدم مبالاتهم بالموت فى سبيل الله – تعالى– بل لكونه أحب إليهم من السلامة، كما قال كعب بن زهير فى حقهم :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم ... قوماً ليسوا مجازيع إذا نيلوا

لا يقع الطعن إلا فى نحورهم ... ومالهم عن حياض الموت تهليل (١)

وفيه – أيضاً – دلالة على جراءتهم، وأنهم لم ينكسروا لقتل بعضهم. (٢)

والواو فى قوله " فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ " لا تقتضى ترتيباً والمراد : يقتل بعضهم ويُقتل بعضهم ، لكنه أسند إلى الجميع فعل بعضهم، لأن المجاهدين كنفس واحدة ". (٣)

وفى قوله: " فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ " إيجاز بالحذف حيث حذف المفعول من الأول " فَيَقْتُلُون " والفاعل من الثاني" يُقْتَلُونَ "، وبينهما جناس حيث تشابها فى اللفظ واختلفا فى المعنى، وطباق لأن القاتلية تضاد المقتولية.

وقوله: ﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ تذييل أفاد تحقيق وتأكيد ما قبله ، وفيه إيجاز بحذف عامل النصب فى المصدرين المنصوبين " وَعْداً – حَقاً " أي : وعدهم وعداً وحق ذلك الوعد حقاً ، أي : تحقق وثبت إخبار من الله سبحانه وتعالى بأن فريضة الجهاد واستحقاق الجنة قد ثبت الوعد بها من الله . وقال " حَقاً " ولم يقل واجباً ، لأن الواجب يكون على المدين ، ومَن فوقه سلطان، والله – سبحانه – ليس فوقه سلطان، وليس لأحد عليه تبعة، أما " حَقاً " فهو اللائق بالكريم العزيز، وتقديم التوراة على الإنجيل والقرآن ، وتقديم الإنجيل

---

(١) ديوان كعب بن زهير: ٤٢. للإمام أبي سعيد الحسن بن الحسين العسكري،دار الكتاب العربي .

(٢) ينظر تفسير أبى السعود: ١٠٥/٤، وروح المعاني: ٢٩/١١.

على القرآن مراعاة للترتيب الوجودي الزمني، لا لأفضلية المقدّم على المؤخّر، وإن كان هذا غير ممتنع فى تقديم التوراة على الإنجيل. (١)

وتنكير قوله " وَعْداً – حَقّاً " يفيد تفخيم وتعظيم هذا الوعد، وأنه محقق وثابت لا يعتريه محو ولا تبديل، فهو مسجل ومكتوب في الكتب السماوية قديمها وحديثها. وقوله: ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي: لا أحد أوفى بعهده من الله، وهو تذييل خرج مخرج المثل، وذلك لتحقيق وتأكيد ما قبله ، والاستفهام خرج عن معناه الحقيقي والمراد به الإنكار ، فالاستفهام إنكاري ، وذلك بتنزيل السامع منزلة من يجعل هذا الوعد محتملاً للوفاء به وعدمه كغالب الوعود ، فيقال " وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ " إنكاراً عليه، والإنكار هنا بمعنى النفي أي: لا أحد أوفى من الله بالعهد، وهو يوحى بالتهديد والوعيد لكل من يعتقد خلاف ذلك .

ولم يأت بأسلوب النفي مباشرة، وعدل إلى أسلوب الاستفهام " لأن الاستفهام فى أصل وضعه يتطلب جواباً يحتاج إلى تفكير، ولما كان المسئول يجيب بعد تفكير وروية من هذه الأسئلة بالنفي، كان فى توجيه السؤال إليه حملاً له على الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من النفي ابتداء ". (٢)

ويحتمل أن يكون الاستفهام للتقرير فيكون تقريراً وتأكيداً لمعنى النفي ، وإذا كانت المفاضلة فى الوفاء منفية فكذا المساواة، فوفاء الله تعالى لا يفاضله وفاء ولا يساويه . وفى قوله : " عَهْدِهِ " استعارة

(١)ينظرفتح البيان فى مقاصد القرآن: ٢٠٣/٤ ،والتفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم:٣٠/٢

تصريحية ، حيث شبه وعد الله – سبحانه – المجاهدين بالثواب بالعهد الذى يكون بين اثنين، بجامع الوفاء وعدم الخلف فى كل، ثم حذف المشبه، وأقيم المشبه به مقامه وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية مبالغة فى الوفاء بالوعد والجزاء، وعدم إخلافه – سبحانه – وقد أبرزته الاستعارة فى صورة المحسوس، فكأنه مكتوب ومودع عند المجاهدين ضماناً لهم وفى قوله: " مِنَ اللَّهِ " وضع للمظهر " لفظ الجلالة " موضع ضميره، وذلك لإحضاره – سبحانه – فى ذهن السامع بجميع صفات الجلال والكمال الموجودة فى لفظ الجلالة " اللَّه " ولا يتأتى ذلك لو أتى بالضمير فقال : منه .

وقوله: ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ الأمر فيه يفيد التبهيج والتفريح ولما استعار لقبول الله لجهادهم " الشراء " استعار لجهادهم بالأنفس والأموال " البيع " ولم يعكس فيستعار لجزاء الله " البيع " مع أن الجنة سلعة وهى التى يطلق عليها البيع، ولجهادهم " الشراء " لأن البائع ليس فى مكنته شيء أكثر من تسليم المبيع، أما المشترى ففي مكنته أن يبذل للبائع أكثر من الثمن ... وكذلك لأن البائع لا يبيع إلا لاحتياج ، أما المشترى فلا يشترى إلا عن غنى (١) ، والتعريف بالموصولية فى قوله: " الَّذِي " لزيادة تقرير بيعهم ، وللإشعار بتمييزه على غيره ، فهو بيع الفاني بالباقي .

وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، فالآية تتحدث عن بيع المؤمنين أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله، وشرائه – سبحانه – ذلك

منهم ، وذلك بطريق الغيبة ثم التفت إليهم بطريق الخطاب فى قولـه: " فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ... " ولو جاء على مقتضى الظاهر لقال: فاستبشروا ببيعهم الذى بايعوا به ، وذلك لتبشير المؤمنين الذين جاهدوا بأنفسهم وأموالهم وبأفضل ما يملكون من أجل نصرة دين الله وإعلاء راية الحق، ولإدخال البهجة والسرور عليهم.

وقوله: ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ فيه قصر صفة الفوز العظيم على بيع المؤمنين الموجب لهم الجنة ، أو قصر صفة الفوز العظيم على الجنة قصراً حقيقياً على سبيل المبالغة، وكأن كل فوز فى الدنيا لا يعتد به بجانب الفوز بالجنة ، فإنه لا فوز أعظم منه، وضمير الفصل " هُوَ " لتأكيد القصر المستفاد من تعريف الطرفين، ووصف الفوز بـ " العَظِيمُ " للتفخيم والتعظيم له، والتعريف بالإشارة فى قوله: " وَذَلِكَ " للدلالة على رفعة وعلو شأن المشار إليه وسمو رتبته فى الكمال.

والجملة تذييل مقرر لمضمون الأمر السابق " فَاسْتَبْشِرُوا " ويجوز أن يكون تذييلاً للآية الكريمة، والإشارة إلى الجنة التى جعلت ثمناً بمقابلة ما بذلوا من أنفسهم وأموالهم ، وفى ذلك إعظام للثمن ومنه يعلم حال المُثَمَّن. (١)

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّـهِ وَلاَ يَنقُضُونَ المِيثَاقَ ﴾ الرعد: ٢٠.فلما نفى الحق – سبحانه – التسوية بين المؤمن والكافر، وبيّن أن الذي ينتفع بالذكرى هم أصحاب القلوب اليقظة، والعقول الواعية، بيّن صفاتهم وابتدأها بقوله: " الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ

(١)ينظر: روح المعاني: ٢٩/١١، نظم الدرر: ٣٩٠/٣

وَلاَ يَنقُضُونَ المِيثَاقَ " فهم يوفون بدين الله ولم يبدلوه وينصرفوا عنه، ولا ينقضون المواثيق التى أبرموها على أنفسهم، فهم إذا عاهدوا لم يغدروا.

أسرار النظم وبلاغته :

قوله:" الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ " الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ولذا فصلت عما

قبلها فبينهما شبه كمال اتصال، فكأن سائلاً قال: ومن أولوا الألباب، وما صفاتهم ؟ وتصلح هذه الجملة أن تكون جواباً عنه، وفى ذلك بيان لفضلهم، وعظم أجورهم، وتعريفهم بالموصولية لبيان ما امتازوا به عن غيرهم ، فهم يوفون بما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته تعالى ، فآمنوا به ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، ومضارعية الصيغة تدل على تجدد واستمرار وفائهم، ولذا استحقوا أن تكون لهم عقبى الدار، ووصف سيدنا إبراهيم بالوفاء فى قوله: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ النجم: ٣٧، حيث أتم وأكمل ما أمر به، وبالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه.

وفى سورة البقرة جاء ذكر صفات الأبرار وكان من صفاتهم قوله ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ الآية: ١٧٧، فعبر بالجملة الاسمية وذلك إشارة إلى ثبوت وفائهم واستقراره فى نفوسهم ، وأنه أمر مقصود بذاته، حيث قطع عن العطف على ما سبق ، وهو مرفوع على المدح بحذف المبتدأ أي: وهم الموفون بعهدهم ، وذلك للإسراع إلى ذكرهم ، والتنبيه على فضيلة الوفاء بالعهد مع الله والوفاء بين الخلق بالالتزام بما عاهدوا الله عليه فيما بينهم من عهود ومواثيق والتقييد بالظرف " إِذَا عَاهَدُوا " للإشارة إلى أنه لا يتأخر إيفاؤهم بالعهد عن

وقت المعاهدة طرفة عين، وفيه تنبيه على وجوب الاحتياط عند بذل العهد ، فلا يعاهد الإنسان حتى يتحقق من قدرته على الوفاء، وهؤلاء إن علموا من أنفسهم عجزاً عن الوفاء فلا يعاهدوا، وتعريف "العهد" بالإضافة إلى لفظ الجلالة " الله " يدل على تفخيم وتعظيم شأنه .

وأكد وفاءهم بالنفي في قوله " وَلاَ يَنقُضُونَ المِيثَاقَ " فنفى النقض يقتضى إثبات الوفاء، والمراد بالميثاق: ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى، وبين العباد وأكدوه بالإيمان وغيرها ، فيكون التعريف فى " المِيثَاقَ " للجنس ويكون من باب العموم بعد التخصيص، ويدخل تحته كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها، ويحتمل أن يكون الأمر بالعكس فيكون من باب التخصيص بعد العموم، ويراد بالعهد جميع عهود الله، وهى أوامره ونواهيه التى وصى بها عباده ، ويدخل فى ذلك الالتزامات التى يلزم بها العبد نفسه، ويكون التعريف فى " المِيثَاقَ " للعهد ، ويكون المراد منه: ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام في عالم الذرّ. [1]

وفى قوله " يَنقُضُونَ " استعارة تبعية، حيث شبه إبطال العهود وعدم الوفاء بها بالنقض، بجامع الإبطال وعدم الإحكام فى كل، ثم حذف المشبه، واستعير المشبه به للمشبه، وذلك على سبيل الاستعارة التبعية، ويمكن حملها على المكنية إذا جعلت الاستعارة فى الميثاق، حيث شبه الميثاق بالحبل بجامع وصله بين طرفين، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النقض، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، وقد

(1) ينظر تفسير أبي السعود: ٥/١٦، وفتح القدير: ٣/٧٨

أوضحت الاستعارة المعنى، وبينت علو منزلة هؤلاء، وأبرزت الأمر المعنوي في صورة المحس ليكون أقرب للإدراك، فالنفس مفطورة على المحسوسات.

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ النحل: ٩١ فهذه الآية تحث المؤمنين على الوفاء بكل ما يلتزم الإنسان به باختياره من أنواع البر مع الله أومع الناس، وألا ينقضوا الأيمان بعد عقدها، فالله هو المطلع عليهم، وهو شهيد على ما يفعلونه فهو علام الغيوب، يجازيهم على ما قدمته أيديهم.

أسرار النظم وبلاغته:

قوله: " وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ " فيه إرشاد وحث للمسلمين على الوفاء بعهد الله، والمراد به هنا: كل ما يلتزمه الإنسان باختياره، ويدخل فيه المبايعة على الإيمان بالله ورسوله، ويدخل فيه عهد الجهاد، وعهد الوفاء بالملتزمات من النذور وغيرها، وقيل المراد به: بيعة الرضوان.[1]

والتعريف بالإضافة فى قوله " بِعَهْدِ اللَّهِ " فيه حث على الوفاء، وتفخيم وتعظيم لهذا العهد، فهو عهد الله، وفيه استعارة أصلية تصريحية حيث شبه كل ما يلزم الإنسان به نفسه من الخير بالعهد الذى يكون بين اثنين بجامع وجوب الوفاء، والمحافظة عليه والعمل بمقتضاه فى كل، ثم حذف المشبه، وتنوسي التشبيه، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية، وهذه الآية من

(1) ينظر أسرار النظم البديع ص ١١٦ والتحرير والتنوير ٩/٢٦٤

قبيل عطف الخاص على العام، لأن الوفاء بالعهد داخل فى العدل المأمور به فى الآية السابقة فى قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [1]، وذلك للاهتمام بشأنه وهو الوفاء بالعهد، والتقييد بالظرف "إِذَا" فى قوله " إِذَا عَاهَدتُّمْ " لتأكيد أمر الوفاء بالعهد، ولبيان أن المراد بالعهد العهد الذى يعقده الشخص باختياره،ولذا قدم الفعل وأخر القيد، بخلاف ما ورد فى سورة الأنعام ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ الآية: ١٥٢ فهو عام يشمل جميع العهود، ما عهده الله إلى عباده، وما تعاهد عليه الخلق فيما بينهم، ولاشك أن عهد الله بالمعنى العام أعظم من عهود العباد فيما بينهم، فقدّم المجرور في سورة الأنعام " عَهْدِ اللَّهِ " للاهتمام وكمال العناية،وقدّم الفعل هنا " أَوْفُوا ". [2]

والجناس بين قوله: " عَهْدِ و عَاهَدتُّمْ " بيّن عظم الأثر فى استمالة القلوب والأسماع إلى هذا التوجيه الرباني والعمل بمقتضاه.

وفى قوله: " وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا " ذكر للخاص بعد العام، وذلك للتنبيه على فضيلة إبرار القسم، وأهمية الوفاء بعهد الله، حيث ذكر أولاً من جملة قوله " وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ " وأفرد ثانياً بالذكر فى صورة النهى عن إبطاله ونكثه، ولذا يقول الألوسى – رحمه الله: قوله: " وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا " تكرار، لأن الوفاء والمنع من النقض متقاربان، لأن الأمر بالفعل يستلزم النهى عن الترك، هذا إذا كان المراد بالعهد اليمين أو عهد خاص، وإذا حمل العهد على العموم بحيث يدخل

(١)النحل: ٩٠.

(٢)ينظر التعبير القرآنى بتصرف: ٢٨٧، د/فاضل صالح السامرائي، ط دار عمار – الأردن

تحته اليمين كان هذا من باب تخصيص الإفراد بالذكر اعتناءً به " [1]، وفى قوله " وَلاَ تَنقُضُوا" استعارة تبعية، فقد شبه إبطال ما كانت الأيمان لأجله بالنقض الذى هو" انتثار العقد من البناء والحبل والعقد " [2] بجامع الإبطال وعدم الإحكام فى كل، ثم حذف المشبه واستعار المشبه به للمشبه وذلك على سبيل الاستعارة التبعية، وقد أوضحت الاستعارة إثم وشفاعة النكث وعدم الوفاء، وأن ذلك لا يتناسب مع التوكيد بالأيمان.

وعبّر بالنقض دون القطع لأنّ فى النقض إضعافاً وإفساداً لهيئة الحبل رجاء عودها إلى ما كانت عليه أما القطع فيفيد تجزئة الشيء مع إبقاء ما به من قوة، ويصعب عود الشيء المقطوع إلى أصله دون حدوث تغيير بخلاف النقض، وكأنه – تعالى – يومئ إلى كل من نقض يميناً أو عهداً على خير فعليه أن يعود فى نقضه، ويفي بيمينه وبما عاهد الله عليه.

ويمكن جعل الاستعارة فى قوله " الأَيْمَانَ " حيث شبه الأيمان بالحبل بجامع إحكامها ووصلها بين شيئين، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النقض وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

وجمع " الأَيْمَانَ " للإشارة إلى أن المذموم استهانتها من غير توقف على كفارة، لأن من فعل ذلك ولو فى واحدة كان فاعلاً ذلك فى الجميع... وحذف الجار فى قوله: " بَعْدَ تَوْكِيدِهَا " والتقدير: من بعد

(١)روح المعاني: ٢٢١/١٤ .

(٢)المفردات في "نقض"

وذلك للعلم به وللإيجاز ولاستغراق زمان البعد بالنقض، وذلك لا يكون إلا بالكذب الشامل له كله، بعضه بالقول، وبعضه بالفعل. (١)

وقوله: ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ أي شاهداً ومطلعاً، وقد أفاد تقديم الجار والمجرور " عَلَيْكُمْ " على متعلقه القصر، وفى قوله " كَفِيلاً " استعارة تبعية حيث شبه فعلهم ذلك وأخذهم العهود والأيمان على البيعة وعلى ما عاهدوا الله عليه، وهو مطلع عليهم بجعله – سبحانه – شاهداً بجامع علمه تعالى واطلاعه في كل، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه وذلك على سبيل الاستعارة التبعية، ويمكن أن يكون فى قوله " اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً " تشبيه بليغ وذلك فى الحفظ والشهادة والإطلاع، وفى ذلك تأكيد لأمر الوفاء، وعظم جرم من نكث وارتد على عقبيه، وقوله: " إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ " خبر مؤكد لتأكيد مضمونه، وفيه تشابه أطراف، فتذييل الآية يناسب صدرها وسياقها، فهي تنبئ عن أفعال منها البيعة وأخذ العهود والمواثيق وما يتبع ذلك من أيمان، وتختلف أحوال الناس تجاه ذلك، فمنهم من يكون وفياً ومنهم من يكون ناقضاً غادراً، فناسب ختم الآية بما يناسب ذلك، لبيان علم الله وحده بما يكون من كل منهم فيحاسبهم عليه.

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ الإسراء:٣٤. تأتى هذه الآية فى سياق الأوامر والنواهي التى يقوم عليها بنيان المجتمع الفاضل، وهى تحث المسلمين على المحافظة على أموال

اليتامى، وصيانتها لهم، حتى يصلوا إلى القوة الجسمية والعقلية التى يستطيعون بعدها حسن التصرف فى أموالهم، وتحثهم – أيضاً – على الوفاء بالعهد، وعدم الغدر به، لأنهم سيسألون عنه يوم القيامة.

أسرار النظم وبلاغته:

قوله: " وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ " نهى عن قربان مال اليتيم وهو كناية عن أكله، والنهى عن قربه يومئ إلى أنه خطر محقق يجب الاحتراز منه والابتعاد عنه، ففي قوله " مَالَ الْيَتِيمِ " استعارة مكنية حيث شبه مال اليتيم بحيوان مفترس أو نار وغير ذلك، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو النهى عن قربه وذلك على سبيل الاستعارة المكنية وهى توحي بعظم الخطر وتحقق الهلاك لمن يقترب من مال اليتيم، ويتعدى عليه بالظلم والعدوان.

وقوله: " وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ " الوفاء بالعهد هو القيام بحفظه على الوجه الشرعي، وأداء التكاليف، والأمر بالوفاء بالعهد جاء تالياً للنهى عن الاقتراب من مال اليتيم، ولهذا فإن الحفاظ على مال اليتيم داخل فى العهد الذى أمر الله الوفاء به، وفى هذا إلفات إلى الأوصياء على اليتامى، وأن أموالهم هي أمانة في يد الأوصياء، فهذا عهد أخذه الله عليهم، وألزمهم الوفاء به، وأن العبث بهذا المال أو التفريط فيه أو العدوان عليه هو نقض لهذا العهد. (١)

وقدّم العهد على الأمر بالوفاء به فى سورة الأنعام فقال: ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ وأخّر هنا فقال ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ ولعل السّر في ذلك –

(١) ينظر فتح البيان: ٣٥٤/٥، التفسير القرآنى للقرآن: ٤٨٥/١٥ للشيخ/عبد الكريم الخطيب، دار الفكر

والله أعلم – أن سورة الأنعام قد ركزت ضمن ما ركزت على قضية الوحدانية، وذكر الحق – سبحانه – فى بدايتها أن الكفار بربهم يعدلون أي يسوون به غيره فى العبادة أو يعدلون عنه مع أنه المستحق للعبادة... وذكر الله فيها عبادة المشركين للأصنام، والكواكب، والنجوم... ونسبوا إلى الله ما لا يليق به، وجحدوا نعمه، ووهبوا من نعمه لأصنامهم، وبعد كل ما جاء فى السورة قال تعالى مخاطباً رسوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ فهو مبلغ عن الله – تعالى، ولا يقال لأحد تعال إلا إذا كان الخبر الذى يراد إبلاغه له بالغ الأهمية، شديد الخطورة، فعليه أن يتهيأ له، وبعد أن عدد المنهيات قال: " وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا " ويحتمل أن يكون العهد الذى حضّ على الوفاء به فى هذه السورة هو عدم الإشراك بالله، وهو ذلك العهد الذى أخذه الله – تعالى – على الخلائق فى عالم الذر، وهذا يتناسب مع ما ركزت عليه السورة وهو قضية التوحيد، فقدّم قوله " وَبِعَهْدِ اللَّهِ " على قوله " أَوْفُوا " فأفاد الاختصاص.

وأما آية الإسراء فقد تقدمها الحضّ على عبادة الله وحده، وأتبع ذلك ببر الوالدين كما فى سورة الأنعام إلا أن القرآن فى سورة الإسراء لم يحتشد لها من الدعوة إلى القول " قُلْ تَعَالَوْا " وتهيئة الأسماع إلى ما يريد أن يتلوه عليهم وقال: " مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ " فركز على بر الوالدين، ولأهميته جاء تالياً للأمر بعبادة الله وحده؛ لأن الله هو الذى أوجده من العدم.. ووالديه كانا سبباً فى وجوده، فيستحقان البر والإحسان إلى حد أن لا يقال لهما أف، وجاء قوله: " أَوْفُوا بِالْعَهْدِ" معطوفاً على ما قبله، ولم يفد القصر وهو من جملة الوصايا التى وقعت بعد قوله تعالى ﴿ أَلاَّ

تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ﴾ [١]، وقوله ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ تعليل للأمر فى قوله: " أَوْفُوا " وفصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من كمال الانقطاع لاختلافهما خبراً وإنشاءً، فجملة " أَوْفُوا " إنشائية لفظاً ومعنى، وهذه الجملة خبرية لفظاً ومعنى، وأكد هذا الخبر للاهتمام والاعتناء به، وهو كناية عن المجازاة بالسؤال فيجازى بالثواب من وفّى بالعهود والتكاليف وحافظ على مال اليتيم، ويجازى بالعقاب من نقض العهود واعتدى على مال اليتيم، حيث يكون التأنيب والتوبيخ والفضيحة على رؤوس الأشهاد يوم التناد، ثم يصلى السعير وبئس المصير.

ووضع الظاهر " الْعَهْد " موضع ضميره والتقدير: إنه كان نكثه. لكمال العناية والاهتمام بشأنه، وعبر بالماضي " كَانَ " عن المستقبل " يكون " لتحقق وقوع السؤال والمجازاة فى الآخرة، وفى قوله " الْعَهْد " استعارة مكنية حيث شبه العهد بشخص تصدر عنه أمور يكون مسئولاً عنها، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، ويمكن حملها على الاستعارة التمثيلية حيث شبه حال العهد فى أنه يسأل ويجيب بحال من نكث عهده بجامع هيئة كل منهما حال سؤاله، قال أبو حيان – رحمه الله: وظاهره أن العهد هو المسئول لا المعاهد أن يفي به ولا يضيعه، وأن يكون من باب التخييل، كأن يقال للعهد: لم نكثت ؟ فمُثل كأنه ذات من الذوات تسأل لم نكثت ؟ دلالة على المطاوعة تبكيتاً للناكث وإلزامه ما يترتب على نكثه. [٢]

([١])الإسراء: ٢٣. وينظر: الكناية في القرآن الكريم: ٢٢٥ .

([٢])البحر المحيط: ١٢/٥.

ويحتمل أن يكون فى قوله " الْعَهْد " إيجاز بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه والتقدير: إن صاحب العهد وبذلك يكون هو المسئول ولا مجاز فى كلمة " الْعَهْد " والله أعلم.

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ الفتح: ١٠.

المعنى العام:

لما بين الحق – سبحانه – فى الآيات السابقة أن النبي مرسل من عنده، وبين طبيعة رسالته، انتقلت الآيات للحديث عن بيعة الرضوان، وموقف الصحابة من خروجه إلى الحديبية فى طريقه إلى مكة لأداء العمرة، وقد بين الحق – سبحانه – أن البيعة لرسول الله ﷺ هي بيعة له، وقوته – سبحانه – فوق قوتهم ونصرتهم، فمن ينقض ما عقده من البيعة فإنما ينقض على نفسه، فضرر ذلك راجع إليه لا يتعداه إلى غيره، ومن ثبت على الوفاء بالبيعة فجزاؤه عظيم عند الله وهو الجنة.

أسرار النظم وبلاغته:

قوله " إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ " خبر مؤكد بـ " إِنَّ " للاهتمام به، وللدلالة على فضل من بايعوا النبي ﷺ بالحديبية، وعرف المسند إليه " الَّذِينَ " بالموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وجعل هذا الإيماء وسيلة إلى التعريض بتعظيم شأن الخبر وهو قوله: " إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ " ففيه دلالة على الاهتمام بأمر هذه البيعة، وتقرير للغرض المسوق له الكلام، فالآية وردت فى معرض بيان فضل من بايعوا النبي ﷺ وعلو منزلتهم، وتحذر من نقض البيعة، وبيان سوء عاقبة الناكثين، وعبر عن الماضي

بالمضارع في قوله: " يُبَايِعُونَكَ " لاستحضار هذه الصورة، وحث للمؤمنين على الاستمرار عليها، فصيغة المضارع تبرز هذا المشهد وتصوره ماثلاً حياً أمام العيان، وكأننا نرى الصحابة – رضوان الله عليهم – وهم يسارعون ويتسابقون إلى مبايعة النبي ﷺ ويعاهدون الله – سبحانه – على التمسك بها، فهو مشهد عجيب حي، وتأثيره دائم ومستمر أسهم فى حدوث الفتح بعد ذلك، وما كان لهذا المشهد أن يبرز ويتضح لو قال: إن الذين بايعوك بصيغة الماضي.

وفى قوله: " يُبَايِعُونَكَ " استعارة تبعية، حيث شبهت المعاهدة بالمبايعة بجامع المبادلة فى كل، ثم حذف المشبه وتنوسي التشبيه، وأدعى دخول المشبه فى المشبه به، ثم اشتق من المشبه به بمعنى المشبه وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وسميت المعاهدة المذكورة بالمبايعة – التى هي مبادلة المال بالمال – تشبيهاً لها بالمبايعة، وذلك لاشتمال كل منهما على معنى المبايعة، لأن المعاهدة – أيضاً – مشتملة على المبادلة بين التزام الثبات فى محاربة الكافرين وبين ضمانه ﷺ لمرضاة الله – تعالى – عنهم وإثابته إياهم بجنات النعيم فى مقابلة ذلك الثبات، فأطلق اسم المبايعة على هذه المعاهدة على سبيل الاستعارة. (١)

وقوله: " إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ " أي أن المؤمنين الذين بايعوا النبي ﷺ ما بايعوه طمعاً فى نوال أو غنيمة، وإنما كانت بيعتهم خالصة لوجه الله – سبحانه – كما أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله – سبحانه –، فهو قصر

(١) ينظر: الفتوحات الإلهية: ١٩٠/٤، وروح المعاني: ٩٦/٢٦، وحاشية زاده: ٣٥٧/٤ .

صفة على موصوف، قصراً حقيقياً مجازياً، واستخدام "إنما" من طرق القصر يدل على أن إخلاص بيعتهم لله لاشك فيها ولا مراء، فهذا من الأمور البهية المألوفة عندهم، وفى ذلك مبالغة فى وصول الثواب المترتب على تلك المبايعة إليهم، ليكون ذلك دافعاً لهم إلى الوفاء بمتطلباتها، وفى قوله: " يُبَايِعُونَ اللَّهَ " مجاز يمكن حمله على الاستعارة التبعية فى قوله: " يُبَايِعُونَ" حيث شبه عهد الله مع المؤمنين على الثبات فى القتال بالبيع بجامع المبادلة فى كل، ثم حذف المشبه وتنوسي التشبيه، وأدعى دخول المشبه في المشبه به، واشتق من المشبه به بمعنى المشبه، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ويمكن حملها على المكنية وذلك فى لفظ الجلالة " الله " حيث شبه الحق – سبحانه – بالمبايع، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو " اليد " وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، يقول العلامة الجمل – رحمه الله – " ولما جعلت المبايعة مع الرسول ﷺ مبايعة مع الله، وشبه – تعالى – بالمبايع، أثبت له ما هو من لوازم المبايع الحقيقي وهو اليد على طريق الاستعارة التخييلية " [1] ويمكن حمل التعبير على المشاكلة فالمراد بقوله: " يُبَايِعُونَ اللَّهَ " يطيعونه، فعبر عن طاعة الله بلفظ يبايعون وذلك لوقوعه فى صحبة المبايعة تحقيقاً، قال الألوسى – رحمه الله " فمبايعة الله – سبحانه – بمعنى طاعته مشاكلة".[2]

(1)ينظر: المرجع السابق نفسه.

(2)روح المعاني: ٨٨/٢٦.

وقوله: ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ فصل هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من كمال الاتصال، فهي بمثابة التوكيد المعنوي لها فهي " مقررة لمضمون جملة " إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ " المفيدة أن بيعتهم النبي ﷺ في الظاهر هي بيعة منهم لله فى الواقع، فقررته جملة " يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ " وأكدته ". [1]

وقد اختلفت كلمة المفسرين حول تأويل قوله تعالى:" يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ " فمنهم من قال أن الحق – سبحانه – له يد ليست كأيدينا، فهو – سبحانه – منزه عن مشابهة خلقه، وبذلك تكون الآية من قبيل الحقيقة الغيبية، ولا مجاز فيها، وهذا هو مذهب السلف.

ومنهم من جعل لها تأويلاً، فهي إما أن تكون بمعنى النعمة أي: نعمة الله عليهم فوق إحسانهم إلى الله، وإما أن تكون اليد فى الموضعين – أي في جانب الله وفى جانب المبايعين – بمعنى القوة والنصرة والغلبة والقهر، فالمراد بـ " يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ " أي نصرته إياهم أقوى من نصرتهم إياه، يقال: اليد لفلان أي: الغلبة والنصرة والقوة، وعلى ذلك يكون فى لفظ اليد مجاز مرسل علاقته السببية، حيث أطلق السبب وهو اليد وأراد المسبب وهو القدرة، والنصرة، أو الإحسان والنعمة، وذلك لأن آثار القدرة إنما تظهر باليد غالباً، وإذا كانت اليد فى جانب الله تعالى بمعنى الحفظ، وفى جانب المبايعين بمعنى الجارحة تكون اليد كناية عن صفة وهى الحفظ، وذلك مأخوذ من حال المتبايعين إذا مدّ كل منهما يده إلى صاحبه فى البيع والشراء وبينهما ثالث متوسط لا يريد أن يتفاسخا

(1)التحرير والتنوير: ١٥٨/٢٦.

العقد من غير إتمام البيع فإنه يضع يده على يديهما، ويحفظ يديهما إلى أن يتم البيع أو العقد، ولا يترك أحدهما يد الآخر، فوضع اليد فوق الأيدي صار سبباً للحفظ على البيعة فقال: " يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ " يحفظهم على البيع كما يحفظ ذلك المتوسط أيدي المتبايعين، ويحتمل أن يكون فى قوله: "يد الله" مشاكلة حيث عبر عن قدرة الله – تعالى – ونصرته وحفظه باليد لوقوعها فى صحبة قوله: أيديهم، والله منزه عن الأيدي، وعما يشبه خلقه، كما أن فى لفظ الجلالة "الله" استعارة مكنية بتشبيهه – سبحانه – بالمبايع، وجعلت اليد المتخيلة فوق أيديهم، لأن إضافتها إلى الله تقتضى تشريفها بالرفعة على أيدي الناس، أو لأن المبايعة كانت بأن يمد المبايع كفه أمام المبايَع ويضع هذا المبايَع يده على يد المبايع، وذكر الفوقية ترشيح للاستعارة وإغراق فى التخيل. (١)

وقوله: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ خبر مراد به التهديد والوعيد لكل من ينقض العهد، فضرر ذلك واقع عليه لا يتعداه إلى غيره، وهو أسلوب قصر، قصر صفة على موصوف، قصراً إضافياً قلبياً، أي " لا يضر بنكثه إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً ، فإن نكث العهد لا يخلو من قصد إضرار بالمنكوب ، فجيء بقصر القلب لقلب قصد الناكث على نفسه دون النبي ﷺ " (٢) والتعبير بـ "إنما" لتنزيل الأمر المشكوك فيه ، وهو دفع الضرر عنهم بنقضهم العهد ، منزلة الأمر

(١) ينظر:الكشاف:٥٤٣/٣، وتفسير الخازن:١٩١/٦، والتفسير الكبير:٨٧/٢٨، والتحرير والتنوير: ١٥٨/٢.

(٢) التحرير والتنوير: ١٦٠/٢٦.

الواضح البين أي أن الضرر يكون على الناكث لا يتعده إلى غيره ، وفى ذلك دفع للناكثين للتفكير فى عاقبة نقضهم العهد مع النبي ﷺ .

" والنكث معناه مأخوذ من نكث الأكسية والغزل، وهو قريب من النقض واستعير لنقض العهد " (١) فقد شبه إبطال البيعة وعدم العمل بها بالنكث، ثم حذف المشبه، وتنوسي التشبيه، وادعى دخول المشبه فى المشبه به، ثم اشتق من المشبه به بمعنى المشبه " نكث " بمعنى " أبطل " وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.ومضارعية الصيغة فى قوله: " ينكث" تدل على تجدد نكثه، وكأنه في كل لحظة وفى كل فعلة ينكث نكثاً جديداً، وفى ذلك تهويل من سوء عاقبته، ولذا عدى الفعل ينكث بـ "على" ليدل على أن ضرر نكثه إنما هو واقع عليه وحده.

" إن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة، مهما غاب شخص رسول الله، فالله حاضر لا يغيب، والله آخذ فى هذه البيعة ومعط، وهو عليها رقيب... والله هو الغنى عن العالمين، وهو الخاسر حين ينكث، وينقض عهده مع الله فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذى يكرهه ويمقته فالله يحب الوفاء، ويحب الأوفياء ". (٢) ولما بين عقاب من ينقض العهد عطف عليه بيان جزاء من أوفى بعهده فقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ وهو خبر مراد به تفخيم وتعظيم جزاء من أوفى بعهد الله، ولم ينكث عهده ويتثاقل إلى الأرض، وهو كناية عن عظم هذا الأجر وكثرته، وأفاد ذلك – أيضاً – تنكير قوله:" أَجْراً" ووصفه بقوله:"عَظِيماً" لتذهب النفس فى بيانه وعظم

(١) المفردات: " نكث ".

(٢) في ظلال القرآن:٣٣٢٠/٦.

شأنه كل مذهب وبين قوله:" نكث، وأوفى" طباق بين إثم وجرم من ينكث العهد، وعظم أجر من يفي بها.

وكرر لفظ الجلالة" الله" في الآية ثلاث مرات لتفخيم وتعظيم هذه البيعة،وبيان عظم جرم من نقضها، وقدّم – أيضاً – الجار والمجرور"عَلَيْهُ"على لفظ الجلالة "الله" في قوله:"عَلَيْهُ اللَّهَ" للاهتمام بالبيعة وبيان عظم شأنها." والآية من الاحتباك حيث ذكر أولاً أن النكث عليه دليل الوفاء له ثانياً وإيتاء الأجر ثانياً دليلاً على إحلال العقاب أولاً،وسرّه أنه بيّن أن ما يريده الناكث من الأذى لغيره إنما هو واقع به،لأنّ ذلك أعظم فى الترهيب عن النكث لما جبل عليه من النفرة عن ضر نفسه وبعده عنه، وذكر الأجر للموفى لأنه أعظم فى الترهيب.[1]وقد تآزرت هذه الألوان البلاغية في بيان عظم البيعة وعظم أجرمن أوفى بها والترهيب من نقضها وبيان إثم من نكثها.

***

وبعد فقد وجدنا في آية (البقرة) نداء الحق سبحانه بـ "يا" الموضوعة للمنادى البعيد لبيان بعدهم عن تعاليمه وافترائهم وجحودهم، وفي أمرهم بتذكر النعمة دلالة على أنهم نسوها بالكلية، وكناية عن إرادة شكرها، وتهيئة لنفوسهم لتلقي الأمر بالوفاء بالعهد الذي صاحبه أسلوب المشاكلة الذي عمل على الترغيب في الوفاء بالعهد، والترهيب من نقضه والغدر به،وقدّم المفعول في قوله:" وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ " فأفاد قصر الرهبة عليه تعالى. وفي آية (آل عمران) جاء الاستئناف ليقرر أنّ من

(1) نظم الدرر: ٥٩٨/٨.

أوفى بعهده واتقى الخيانة ونقض العهد فليس من الكاذبين، وجاءت الجملة بعدها مؤكدة لهذا المعنى ومقوّية له، وذلك بتقديم المسند إليه على خبره الفعلي، وجاءت الاستعارة في آية (المائدة) وأبرزت الأمر المعنوي في صورة المحسوس، حيث شبه العقود – وهي جميع العهود التي ألزمهم الله إياها، وكذا ما يعقدونه فيما بينهم من العقود– بعقد الحبل ونحوه، وجاءت هذه الآية قمة في الإيجاز والإعجاز. وجاءت الاستعارة التمثيلية في آية (التوبة) لتصور وعد الله للمؤمنين والمجاهدين بصورة عقد بين بائع ومشتر، وأنهم يستحقون الجنة بإخلاص نيتهم لله في جهادهم، ودخولهم في ساحة الجهاد، وأكد الخبر بعدها لتأكيد حصولهم على الثمن وهو الجنة، فهذا وعد عليه حقاً وثابتاً، فلا أحد أوفى بعهده من الله، وجاء أسلوب الاستفهام لحمل المخاطب على الإقرار بهذا النفي.وأكدت الاستعارة وفاء المؤمنين بعهد الله في آية (الرعد)، فهم يوفّون بعهودهم مع الله ومع الناس وما أوجبوه على أنفسهم،وجاء التقييد بالظرف في آية (النحل) مؤكداً لأمر الوفاء بالعهد،ولبيان أن المراد بالعهد هو ما يعقده الإنسان باختياره، وجاء التعبير بالنقض دون القطع لأن في النقض إضعافاً وإفساداً للهيئة رجاء عودها إلى ما كانت عليه، وفيه إشارة لمّاحة إلى كل من نقض يميناً أوعهداً على خير عليه أن يعود في نقضه ويفي بعهده، وجاء الأمر بالوفاء تالياً للنهي عن الاقتراب من مال اليتيم في آية (الإسراء) للدلالة على أن الحفاظ على مال اليتيم داخل في العهد الذي أمر الله بالوفاء به، وجاء قوله: " إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً " تعليلاً للأمر ومؤكداً للاهتمام والاعتناء به، وهو كناية عن المجازاة بالسؤال، فيجازى بالثواب من

بيّن عقاب من ينقض
تنكير:" أَجْراً" ووصفه
كل مذهب، وكرر لفظ
ظيم هذه البيعة، وقد
ط والتلازم بين الوفاء
تخلو آية من استعارة
الوفاء، وإبراز الأمر

المبحث الثاني

الوفاء بالكيل

ومن الآيات فى ذلك قوله تعالى ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ الأنعام: ١٥٢.

ففي هذه الآية بين الحق – سبحانه – عدداً من الوصايا التى أمر النبي ﷺ بتبيينها لأمته، ومنها: عدم قربان مال اليتيم إلا بالطريقة التى هي أحسن لليتيم، فيحفظه له وينميه، ومنها الوفاء بالكيل والميزان، ومنها العدل فى القول كالشهادة وغيرها، ومنها الوفاء بعهد الله وبكل ما وصى به وشرعه وألزم به، فقد وصى بهذا رجاء أن يتذكروا ذلك فى أنفسهم فيحملهم على العمل، وأن يذكر بعضهم بعضاً فيمتثلوا لأوامره وينزجروا عن نواهيه.

أسرار النظم وبلاغته:

قوله: " وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " كناية عن

وخصّ اليتيم بالذكر لأنّ حقه مظنة الاعتداء عليه من الولي، وهو مظنّة انعدام المدافع عنه، ولذلك لم يوص الله- تعالى- بمال غير اليتيم، لأن صاحبه يدفع عن نفسه أو يستدفع بأوليائه ومنجديه. وفى قوله: "إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " إيجاز بحذف الموصوف والتقدير: إلا بالحالة أو الخصلة التى هي أحسن للعلم به وللاهتمام بالصفة، وقوله: " حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّه " أي إلى أن يبلغ سن الرشد والقوة الجسمية والعقلية، فيدفعه إليه كاملاً نافياً، مخلصاً نفسه من أدرانه وسوء عاقبة قربانه.

وفى قوله: " يَبْلُغَ " استعارة تبعية حيث شبه تدرج اليتيم فى أطواره الجسمية والعقلية المخرجة له من ضعف الصبا ببلوغه ووصوله من مكان لآخر بجامع الوصول فى كل، ثم حذف المشبه وتنوسي التشبيه، وادعى دخول المشبه فى المشبه به ثم اشتق من المشبه به بمعنى المشبه وذلك على سبيل الاستعارة التبعية، وفى قوله: " وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ " إيجاز بحذف المضاف والتقدير: وأوفوا مكيال الكيل وموزون الميزان، وفى ذكر القسط بعد الأمر بالإيفاء تكرار وذلك للتأكيد على تحرى العدل والإيفاء بالحقوق.

وعبّر بالأمر بإيفاء الكيل والميزان دون التعبير بالنهى عن نقص الكيل والميزان كما فى قول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ وَلاَ تَنقُصُوا المِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [1] للإشارة إلى أنهم مأمورون بالحد الذى يتحقق فيه العدل وافياً، وعدم النقص يساوى الوفاء، ولكن فى اختيار الأمر بالإيفاء اهتماماً به ، لتكون النفوس ملتفتة إلى جانب الوفاء لا إلى جانب ترك

(1) هود: ٨٤ .

التنقيص، وفيه تذكير لهم بالسخاء الذى يتمادحون به، كأنه قيل لهم: أين سخاؤكم الذى تتنافسون فيه ؟ فهلا تظهرونه إذا كلتم أو وزنتم، فتزيدوا على العدل بأن توفروا للمكتال كرماً بله أن تسرقوه حقه، وهذا تنبيه لهم على اختلال أخلاقهم وعدم توازنها." [1]

وفى قوله: ﴿ وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ احتراس أي لا نكلفكم تمام القسط فى الكيل والميزان بالحبة والذرة، ولكنا نكلفكم ما تظنون أنه عدل ووفاء، فلا يترك الناس التعامل بينهم خشية الغلط أو الغفلة فيفضى ذلك إلى تعطيل منافع جمّة... أو تكون الجملة تذييل للجمل التى قبلها لبيان أن جميع ما دعوا إليه هو فى طاقتهم ومكنتهم [2] وهو أسلوب قصر، فقد نفى كل تكليف للنفس إلا تكليفاً واحداً وهو تكليف النفس ما فى وسعها، وهو قصر صفة على موصوف.

وفيه استعارة، فقد شبه طاقة الإنسان بالوسع بجامع أن كلاً منهما يتحمل ما يوضع فيه، ويكلف به، أو شبهت النفس فى تقبلها ما تكلف به أو تضيق به بالمكان الذى يسع ما يوضع فيه أو يضيق به، ثم حذف المشبه به ورمز إليه نشئ من لوازمه وهو الوسع وذلك على سبيل الاستعارة المكنية وفى ذلك مبالغة فى بيان أن الله لا يكلف الإنسان إلا بما يكون فى قدرته واستطاعته. أو شبّه حال الحق – سبحانه – فى تكليفه الإنسان ما هو فى قدرته وعلى قدر استطاعته بحال من يجعل فى مكان ما من الأشياء ما هو فى قدر سعته وحيزه بجامع أن كلاً فى سعته وقدرته تحمل ما كلف به أو وضع فيه، يقول الدكتور/ عبد العظيم

(1) ينظر التحرير والتنوير: ١٦٥/٨.
(2) المرجع السابق نفسه.

المطعنى – رحمه الله: " الوسع هنا بمعنى الطاقة، وهو استعمال مجازى أو كالمجاز، لأن أصلها المجاز، وقد شاع استعمالها حتى أصبحت كالحقيقة اللغوية فيما استعملت فيه، وإنما كانت هنا بمعنى الطاقة لأنها وقعت فى حيز التكليف، والتكليف منوط بما كان فى قدرة الإنسان وطاقته. وفى تشبيه الطاقة بالوسع تصوير للمعنوي بالمحسوس، والمجاز يصح حمله على المركب والمفرد ". (١)

وقوله: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أي اعدلوا في القول إذا قلتم قولاً فى شهادة أو حكم على أحد ولو كان المقول فى حقه صاحب قرابة لكم. والتقييد بالشرط فى قوله: " وَإِذَا قُلْتُمْ " إشارة إلى أن المرء فى سعة من السكوت إن خشي قول العدل، وأما أن يقول الجور والظلم والباطل فليس له سبيل إلى ذلك... والواو فى قوله: " وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى" للحال، والتقييد بالجملة الحالية يدل على المبالغة فى الحال التى من شأنها أن يظن السامع عدم شمول الحكم إياها لاختصاصها من بين بقية الأحوال التى يشملها الحكم – فإن حالة قرابة المقول لأجله القول قد تحمل القائل على أن يقول غير العدل لنفع قريبه أو مصانعته، فنبهوا على وجوب التزام العدل فى القول فى تلك الحالة. (٢)

وقوله: " وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا " التعريف بالإضافة فى قوله: عهد الله يدل على تفخيم وتعظيم هذا العهد مما يستوجب الوفاء به، وتقديم معمول الفعل " الجار والمجرور " عليه يدل على القصر، فقصر الحق سبحانه

(١)خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية: ٣٦٣/٢ وما بعدها.
(٢)ينظر التحرير والتنوير: ١٦٧/٨ بتصرف .

الأمر بالوفاء على ما فيه من طاعة له وكل ما فيه معصية له لا يجب الوفاء به، وفى التقديم – أيضاً – اهتمام وعناية بعهد الله.

وفى قوله " عَهْدِ اللَّهِ" استعارة تصريحية حيث شبهت أوامر الله تعالى وشرائعه إلى خلقه بالعهد الذى يكون بين اثنين بجامع الوفاء والالتزام وعدم النقض فى كل ثم حذف المشبه وتنوسي التشبيه وأدعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به، ثم استعير المشبه به للمشبه وهذا على سبيل الاستعارة الأصلية وذلك للمبالغة فى وجوب الوفاء بعهد الله.

وقدّم الأمر بإيفاء الكيل والميزان هنا على الأمر بإيفاء العهد، بخلاف ما ورد فى سورة الإسراء حيث قدّم الأمر بإيفاء العهد على الأمر بإيفاء الكيل والميزان (١) ، وذلك لأنه مرّ ذكر المفتقرين فى سورة الأنعام وذلك فى قوله ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ من إِمْلاق ﴾ الآية: ١٥١ وقد ذكر الموسرين في سورة الإسراء، والفقر أدعى إلى التطفيف والإيفاء بالكيل لحاجة المفتقر إلى المال، فكان وضع كل تعبير فى مكانه هو أليق به، وهذا يدل ويؤكد على أنّ لكل كلمة فى القرآن بحراً ومكاناً تسبح فيه لا يبغى به بديل. (٢)

والإشارة للبعيد فى قوله " ذَلِكُمْ " للدلالة على علوّ وعظم منزلة هذه التكاليف، والتعرف بالإشارة يدل على تمييز المشار إليه أكمل تمييز وإبرازه فى صورة الشيء المحس والمشاهد، وفصل قوله " ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ " عما قبله لما بينهما من كمال الاتصال فهو بمثابة بدل اشتمال مما

(١)الإتقان: ٣٤ ، ٣٥.
(٢)ينظر التعبير القرآنى: ٢٨٦.

قبله، ويمكن جعل الفصل لكمال الانقطاع بلا إيهام فهذه الجملة خبرية لفظاً ومعنى وما قبلها إنشائية لفظاً ومعنى.

وفى قوله " وَصَّاكُم بِهِ " استعارة تبعية حيث شبه ما أمر به بالوصية بجامع وجوب الامتثال فى كل، ثم حذف المشبه وتنوسي التشبيه وأدعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به، ثم استعير المشبه به للمشبه وهذا على سبيل الاستعارة التبعية وذلك للمبالغة فى الامتثال لأوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، وفى قوله: " لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " مراعاة نظير أو تشابه أطراف، فحفظ أموال اليتامى، والوفاء بالكيل والميزان، والعدل فى القول، والوفاء بالعهد من الأمور التى كانوا يفعلونها ويفتخرون بالاتصاف بها، فأمرهم بذلك لعلهم يتذكرون إن عرض لهم نسيان، فناسب أن تختم الآية بذلك، وقيل: لما كانت هذه الأمور الأربعة خفية غامضة لابد فيها من الاجتهاد والذكر الكثير حتى يقف الإنسان على وضع الاعتدال فيها ختمت بقوله: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. [1] ومضارعية الصيغة تدل على تجدد تذكرهم لهذه الأمور حتى لا يكون هناك غفلة عن تدبر هذه الأوامر وتأملها ليفوزوا برضوان الله تعالى.

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف: ٨٥.

(1) ينظر روح المعانى: ٥٦/٨، والفتوحات الإلهية: ١١٠/٥

فهذه واحدة مما تذكره سورة الأعراف من قصص الرسل – عليهم السلام – وهى قصة سيدنا شعيب عليه السلام فبدأ دعوته قومه بإصلاح عقيدتهم؛ لأنها الأصل الذى يبنى عليه كل شيء، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وهو يستند فى دعوتهم إلى معجزة من الله تعالى، وليست من عند نفسه أو اختلاقه، وكانوا أهل بخس فدعاهم إلى الوفاء فى المكيال والميزان ولا ينقصون الناس حقوقهم، ولا يفسدون فى الأرض بالكفر والظلم بعد أن وقع فيها الإصلاح، وإذا فعلوا ذلك كان لهم الخيرية فى الدنيا بالإصلاح وكثرة المال والخيرية فى الآخرة برضى الله عنهم إن كانوا مؤمنين بالله وحده .

أسرار النظم وبلاغته :

قوله " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً " أي: وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً ، فالواو عاطفة قصة على قصة، وقدم الجار والمجرور " إِلَى مَدْيَنَ" على المفعول الأصلي "أَخَاهُمْ شُعَيْباً " ليتأتى الإيجاز بالإضمار، حيث أريد وصف شعيب بأنه من إخوة مدين ومن صميمهم، من غير احتياج إلى إعادة لفظ " مَدْيَنَ ".

وقوله " قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ " فصلت هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فهي مستأنفة استئنافاً بيانياً ، فالجملة الأولى تثير سؤالاً فكان سائلاً قال : وما الذى خاطب به شعيب قومه ؟ وتصلح هذه الجملة أن تكون جواباً عنه، وإضافتهم إليه يدل على خوفه وحرصه عليهم ، وجاءت جملة: " مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ " بيان للعبادة التى أمرهم بها .

وقوله " قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ " أي: معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بي والأخذ بما آمركم به والانتهاء عما أنهاكم عنه، والتعبير بـ " قَدْ" يدل على التحقيق والتوكيد، ونكّر قوله " بَيِّنَةٌ " للتفخيم والتعظيم من شأنها، ولم يأت بيان " البيّنة " في كلامه ﷺ فيحتمل أن يراد بها أن يكون أنذرهم بعذاب يحلّ بهم إن لم يؤمنوا فيكون التعبير بالماضي " قَدْ جَاءَتْكُم " مراداً به المستقبل القريب، تنبيهاً على تحقيق وقوعه. ويحتمل أن يراد بها نفسه، أو قوله " فَأَوْفُوا الكَيْلَ... " وقيل غير ذلك [1]، وقوله:" فَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ" أمر بجعل الشيء وافياً تاماً غير ناقص. وفيها إيجاز بحذف المضاف أي: أوفوا مكيال الكيل ووزن الميزان، والفاء لترتيب الأمر على مجيئ البينة، لأن البينة تدل على صدقه، فلما قام الدليل على صدقه، وكان قد أمرهم بالتوحيد لما فيه من صلاح القلب، ثم شرع في بيان الشرائع من الأعمال، ويجوز أن تكون عاطفة على قوله " اعْبُدُوا " فعبادة الله موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس الذي كانوا يباشرونه [2] وجاء في سورة هود ﴿ أَوْفُوا المِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ الآية: ٨٥ ففيها مجاز مرسل علاقته المحلية، حيث أطلق المحل " المِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ " وأريد الحالّ " الشيء المكيل والموزون " وهذا يوحي بتحري الذمة في الوزن والكيل، لأنه إذا كان المكيال والميزان – وهما محل الكيل والوزن – وافيين فلاشك يكون المكيل والموزون وافياً، وقد

(1)ينظر الكشاف: ٩٣/٢، وحاشية الجمل: ١٦٣/٢، والتحرير والتنوير: ٢٤١/٨.

(2)ينظر الكشاف: ٩٣/٢، والتحرير والتنوير: ٢٤١/٨.

ذكر قبل ذلك نهيهم عن نقض المكيال والميزان فقال: " ولا تنقصوا المكيال والميزان " فهؤلاء القوم أشربت نفوسهم الغش والبخس، وأكل أموال الناس بالباطل، فكان تكرار النصح والتأكيد على الوفاء وسيلة لمحاولة إرشادهم للصواب في معاملاتهم، ويقول الإمام الزمخشري – رحمه الله – فإن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله: أوفوا ؟ قلت: نهو أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان؛ لأن في التصريح بالقبيح نعياً على المنهي وتعبيراً له ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه، وبعث عليه، وجيئ به مقيداً بالقسط: أي ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان أمراً بما هو الواجب لأن ما جاوز العدل فضل، وأمر مندوب إليه " [1]، وجاء في سورة الشعراء قوله ﴿ أَوْفُوا الكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ المُخْسِرِينَ ﴾ الآية: ١٨١ لأن الكيل على ثلاثة أضرب: وافٍ وطفيف وزائد، فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء، ونهى عن المحرّم الذي هو التطفيف، ولم يذكر الزائد وكأن تركه عن الأمر والنهي دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا عليه".[2]

وقوله " وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ " أي لا تنقصوهم حقوقهم، وإنما قال أشياءهم لإفادة العموم تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير، وقيل كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه

(1)ينظر المرجع السابق: ٢٨٥/٢.

(2) ينظر المرجع السابق: ١٢٦/٣.

(١) ومضارعية الصيغة تدل على تجدد النهى لهم فى كل ما يبخسون
واء أكان قليلاً أم كثيراً، عظيماً أم حقيراً. وبين الوفاء والبخس طباق
وبين فضل الوفاء وإعطاء الناس حقوقهم وعظم جرم من يبخسهم
نقصهم حقوقهم. وقوله: " وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا " أي:
كفر والحيف بعدما أصلح أمرها وأهلها الأنبياء وأتباعهم بإجراء
شرائع، فالأنبياء صلاح لقومهم، أو أصلحوا فيها. وذكرهم بترك
فساد ليكون صلاحهم منزهاً عن أن يخالطه فساد، فإنهم إن أفسدوا فى
لأرض أفسدوا مخلوقات كثيرة، وأفسدوا أنفسهم فى ضمن ذلك الإفساد
أشبه موقع الاحتراس. والإفساد فى الأرض منه تصيير الأشياء
صالحة مضرة كالغش فى الأطعمة، ومنه إزالة الأشياء النافعة كالحرق،
ومنه إفساد الأنظمة كالفتن والجور... وغير ذلك فحذف متعلق" تُفْسِدُوا"
تأكيداً للعموم المستفاد من وقوع الفعل فى حيز النفي. وذكر المحل الذى
فسدوا ما يحتوى عليه وهو"الأرض" لتفظيع فسادهم بأنه مبثوث فى هذه
لأرض، لأن وقوعه فى رقعة منها تشويه لمجموعها. (٢) ومضارعية
لصيغة " تفسدوا " تدل على تجدد نهيهم فى كل ما يحدثونه من إفساد
وبين الإفساد فى الأرض والإصلاح فيها طباق بين عظم جرم الإفساد
وتعدى أثره.

وقوله: ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ الإشارة فيه لكل ما
تقدم، والتعريف بالإشارة " ذلكم " للدلالة على عظم المشار إليه، وعلو

(١)ينظر تفسير البيضاوي:٣٥٨/١.

مرتبته، وبعد منزلته، حثاً لامتثال ما هم مأمورون به والانتهاء عما نهوا عنه.

والتنكير فى قوله " خَيْرٌ " للتفخيم والتعظيم والعموم، فهو خير عظيم يشمل خير الدنيا بهناء العيش واستقرار الأمن وصفاء الود بين أفراد الأمة الواحدة وكذا بين الأمم، ويشمل خير الآخرة برضى الله عنهم فينجون من عذابه ويسكنون دار ثوابه، وجعل اتصاف المخاطبين بالإيمان بالله وحده شرط لنيلهم الخير الكامل عن تلك الأعمال الصالحة، فهو رجوع إلى الدعوة للتوحيد بمنزلة رد العجز على الصدر فى كلام شعيب عليه السلام ومعناه أن حصول الخير الكامل من الأشياء المشار إليها لا يكون إلا مع الإيمان. (١)

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ المُنْزِلِينَ ﴾ يوسف: ٥٩. تأتى هذه الآية فى سياق حديث يوسف عليه السلام مع إخوته حينما جاءوه فى السنين التى حلّ فيها الجدب والقحط ليكتالوا منه، حيث ذاع أمره عليه السلام في الآفاق لرحمته وعدله وعطفه، فلما أعطاهم ما يحتاجون إليه، وكانوا قد أخبروه عن شأنهم وحالهم، طلب منهم إحضار أخ لهم من أبيهم ليتأكد من مدى صدقهم فيما أخبروه به، ثم رغبتهم فى الجدّ والاهتمام بهذا الأمر، فهو يتم الكيل ويوفيه، ويحسن ضيافة من قدم عليه، وجعل هذا الطلب شرط قدومهم إلى مصر مرة أخرى. (٢)

(١)ينظر المرجع السابق: ٢٤٥/٨.
(٢)ينظر الكشاف: ٣٣٠/٢.

أسرار النظم وبلاغته:

قوله " وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ " الجِهاز – بفتح الجيم وكسرها – ما يحتاج إليه المسافر [1] أي: أعطاهم ما يحتاجون إليه من الزاد، ووصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين مع عدم المانع – وقوله:" قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ " يقتضى حديث منهم عن أنّ لهم أخاً من أبيهم لم يحضر معهم، وإلا لكان إنباء يوسف عليه السلام لهم بهذا يشعرهم أنه يكلمهم عارفاً بهم، وهو لا يريد أن يكشف ذلك لهم ". [2] والتنكير فى " أخٍ " يفيد المبالغة فى إظهار عدم معرفته لهم، والتظاهر بجهله بأخيهم، إذ لو قال بأخيكم لأوهم التعريف بالإضافة معرفته عليه السلام بهم، ولدعاهم ذلك إلى الريبة والشك، وفى طلبه هذا إيماء إلى مدى الحب العظيم الذى يكنه يوسف عليه السلام لأخيه. وقوله: " أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ المُنزِلِينَ " كناية عن وعده بأنه يوفى لهم الكيل ويكرم ضيافتهم إن أتوه بأخيهم، وفيه ترغيب لهم فى العود إليه، وأكد الجملة بـ " أنّ " واسمية الجملة، وقدم المسند إليه ضمير المتكلم فى قوله"أَنِّي" على خبره الفعلي وهو قوله: " أُوفِي الكَيْلَ" لتقوية الحكم وتوكيده، وتأكيد مضمون الخبر، فهو عليه السلام غاية في الإحسان وإكرام الضيف، وفى ذلك إيماء إلى أن الوفاء بالكيل من سمات المؤمنين الصالحين، ومضارعية الصيغة فى قوله " أُوفِي" تدل على تجدد ذلك منه، والسياق يدل على استمرار وفائه وكرمه لكل من نزل عليه، وهذا من شيم الأنبياء والمرسلين، وقوله " وَأَنَا خَيْرُ المُنزِلِينَ " وصل بين هذه

(1) لسان العرب: " جهز ".

(2) التحرير والتنوير: ١٢/١٣، ١٣.

الجملة وما قبلها ولما بينهما من التوسط بين الكمالين مع عدم المانع، وقدم المسند إليه " أَنَا " لبيان اتصافه بهذا الوصف وإثبات لخيرية الإنزال عليه، وفى ذلك إغراء لهم فى القدوم عليه لينالوا كرم ضيافته.

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي المُتَصَدِّقِينَ ﴾ يوسف: ٨٨ فهذه الآية تبين رحلة إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر استجابة لنصيحة أبيهم بالتحسس من يوسف وأخيه، حيث لبوا مسرعين، فدخلوا عليه وطلبوا منه – فى ذل وانكسار – أن يوفى لهم الكيل ويتصدق عليهم، فالله يجزى المتصدقين، وذلك بعد أن بينوا له إصابة الضّر لهم ولأهليهم، وأنا ما أتوا به قليل لا يساوى ما يطلبونه منه.

أسرار النظم وبلاغته:

قوله: " فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ " العطف بالفاء يدل على مدى سرعة الاستجابة المنبئة عن طاعة أولاد يعقوب عليه السلام في هذه الأوقات، والنداء بأداة النداء " يَا " الموضوعة للبعيد مع قرب العزيز منهم يدل على رفعته وعلو شأنه، ويومئ إلى الاهتمام بما ينادى لأجله، وإسناد القول إلى ضميرهم يدل على رفعته وعلو شأنه فى نفوس كل الأخوة، وهم جميعاً واثقون فى أنهم يخاطبون عزيز مصر وليس شخصاً آخر، وهذا يدل على أن كيدهم متقن دقيق التنفيذ. وقوله: " مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ" أي: أصابهم الجدب والقحط، و" أل " في " الضُّرُّ " للجنس وهى تشعر بأن الضر الذى أصابهم قد بلغ الغاية، ولم يبق منه نوع إلا وقد حلّ بهم، وهذا خبر يدل على الاستعطاف وإظهار الضعف والذلّ

والانكسار، وقوله: " وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ" أي بضاعة قليلة لا تعادل ما يطلبونه فى مقابلها، وهو كناية عن قلّة بضاعتهم ورداءتها وكأنها ترمى وتطرح لعدم الاهتمام والاعتناء بها، وقوله: " فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا " الأمر فيه للالتماس مع الانكسار، فهم يلتمسون من يوسف عليه السلام أن يوفى لهم الكيل ويتصدق عليهم، فبضاعتهم رديئة لا تعادل ما يطلبونه فيها، وعللوا طلبهم بقولهم " إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي المُتَصَدِّقِينَ " وأكدت هذه الجملة بـ " إنّ " واسمية الجملة، وقدم المسند إليه لفظ الجلالة" اللَّهَ " على خبره الفعلي " يَجْزِي المُتَصَدِّقِينَ " وذلك لتقوية الحكم وتوكيده، ولبيان أن جزاء المتصدقين متحقق وثابت وأنه لا شك فيه، وهو تذييل يومئ إلى قبول التماسهم ورجائهم " وهو من المعاريض التى هي مندوحة عن الكذب، وذلك أنهم كانوا يعتقدونه ملكاً كافراً على غير دينهم، ولو قالوا إن الله يجزيك بصدقتك فى الآخرة كذبوا، فقالوا له لفظاً يوهم أنهم أرادوه وهم يصح لهم إخراجه منه بالتأويل ". [1] " وقد تضمنت مقولتهم خمس جمل تنوعت طريقة بنائها، كما تعددت أدوات الربط فيها، فبعد النداء جاءت الجملة الأولى " مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ" وصفاً عاماً لحال معيشتهم، ثم عطف عليها " وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ" إشارة إلى أنها معيبة مدفوعة، وهذا أفاده التقييد بالوصف " مُزْجَاةٍ " ثم سببوا على ما سبق " فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ " وفيه طلب التغاضي عن عيب البضاعة، ثم عطفوا على ذلك " وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا " استعطافاً له ، وفيه من إظهار الحال

(1) البحر المحيط : ٣٤٠/٥ .

ما جعل يوسف عليه السلام يرق لهم ، ثم أكدوا هذا الأخير وكأن لهم به فضل تعلق " إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي المُتَصَدِّقِينَ " استئنافاً بيانياً تعليلاً لما سبق " . [1]

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ وَأَوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ الإسراء: ٣٥. وتأتى هذه الآية فى سياق الأوامر والنواهي التى يقوم على أساسها بنيان المجتمع المسلم، وهى تحث المسلمين على إتمام الكيل إذا كالوا لغيرهم دون زيادة أو نقصان وعلى الوزن بالعدل، فإنهم إذا فعلوا ذلك كان خيراً لهم فى الدنيا، وأحسن ثواباً فى الآخرة.

أسرار النظم وبلاغته:

قوله: " وَأَوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ" أي: أوفوا مكيال الكيل، ففيها إيجاز بحذف المضاف، وعبر بالأمر بإيفاء الكيل دون التعبير بالنهى عن نقص الكيل – ولا تنقصوا المكيال – للإشارة إلى أنهم مأمورون بالحد الذى يتحقق فيه العدل وافياً، وعدم النقص يساوى الوفاء، فى اختيار الأمر بالإيفاء اهتماماً به، لتكون النفوس ملتفتة إلى جانب الوفاء لا إلى جانب ترك التنقيص، وفيه تذكير لهم بالسخاء الذى يتمادحون به. [2] وقوله: " إِذَا كِلْتُمْ " فيه تجدد ما تضمنه الأمر فى جميع أزمنة حصول مضمون شرط " إِذَا" الظرفية الشرطية، للتنبيه على عدم التسامح فى شيء من نقص الكيل عند كل مباشرة له. [3]وقال تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ الآية ١٥٢ وزاد هنا في سورة الإسراء

(1) ينظر المرجع السابق نفسه، والكشاف: ٣٤٠/٢.

(2) ينظر التحرير والتنوير: ١٦٥/٨.

(3) المرجع السابق: ٩٨/١٥.

قوله " إِذَا كِلْتُمْ " لأن هذه الزيادة متناسبة مع سياق التفصيل في سورة الإسراء، والتقييد بقوله " إِذَا كِلْتُمْ" أي: وقت كيلكم على سبيل التأكيد، وأن لا يتأخر الإيفاء بأن يكيل بنقصان ما ثم يوفيه بعد، فلا يتأخر الإيفاء عن وقت الكيل. وفى التقييد فائدة أخرى فمعنى " إِذَا كِلْتُمْ " إذا بعتم، والتطفيف يكون في هذا الموطن، فإن البائع هو الذي يطفف وينقص في الكيل أما الذي يكتال فلا حاجة إلى أمره بالوفاء. [1] وقوله: " وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ " القسطاس: الميزان، أي: زنوا بالميزان العدل وهو رومي عرّب ، ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن ، لأن العجمي إذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم فى الإعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربياً . [2] والمستقيم: السوىّ، ووصف به الميزان لمناسبته له، ولذا جاء قوله " بِالْقِسْطِ " في سورة الأنعام [3] والمراد به العدل لأن الآية سيقت مساق التذكير للمشركين بما هم عليه من المفاسد فناسب أن يذكّروا بالعدل، ليعلموا أن ما يفعلونه ظلم، والباء فيها للملابسة، وهذه الآية جاءت خطاباً للمسلمين فكانت أجدر باللفظ الصالح لمعنى آلة الوزن، وهو يومئ إلى معنى العدل، والباء فى قوله:"بِالْقِسْطَاسِ" تفيد الاستعانة أي: زنوا بالميزان السوي العدل، والعدل كله استقامة. [4] والتعريف بالإشارة في قوله " ذَلِكَ " لتعظيم شأن المشار إليه وهو الوفاء فى الكيل والعدل فى الميزان، واسمية

([1])ينظر البحر المحيط: ٣٤/٦ ، ٣٥، وروح المعاني: ٧١/١٥.

([2])المفردات: " قسط "، وتفسير البيضاوي: ٥٨٥/١.

([3])الآية: ١٥٢.

([4])التحرير والتنوير: ٩٨/١٥ ، ٩٩ بتصرف.

الجملة فى قوله " ذَلِكَ خَيْرٌ " تدل على ثبوت خيرية جزاء الامتثال لأوامر الحق سبحانه فى الآخرة على النقص أو التطفيف فى الكيل والميزان فى الدنيا.

وقوله: "وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً " أي : وأحسن إرجاعاً ففيها استعارة ، فقد شبه حال من يفاضل بين منافع التطفيف فى الكيل والميزان وبين مضار الإيفاء فيهما ، ثم بدأ يجول بنظره وفكره إلى أن تبيّن له عكس اعتقاده فاستقر إلى مضار التطفيف ومنافع الإيفاء بحال من يجول بفكره ونظره بين أمرين ناظراً إلى عاقبة كل منهما ثم استقر رأيه بعد التأمل والتدبر على اختيار أفضلهما ، وذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية ، وقد بينت الاستعارة قلة الفائدة التى تعود على المطفف مقارنة بكراهيته من الناس فى الدنيا وعقابه الأليم فى الآخرة ، وعظم الفائدة فى اختياره الإيفاء فى الكيل والميزان حيث يكسب حب الناس وميلهم إليه ورضاهم عنه والبركة فى ماله وولده فى الدنيا ، وعظيم الجزاء فى الآخرة .

***

وبعد فقد وجدنا في آية (الأنعام) النهي عن الشيء بالنهي عن الاقتراب منه، وهو أبلغ في التحذير من النهي عن ملابسته، وعبر بالأمر بإيفاء الكيل والميزان دون التعبير بالنهى عن نقصانهما للإشارة إلى أنهم مأمورون بالحد الذي يتحقق فيه العدل وافياً، ولتكون النفوس ملتفتة إلى جانب الوفاء لا إلى جانب ترك التنقيص، وجاء التقييد بالشرط ليدل على أن المرء في وسعه من السكوت إن خشي قول العدل، والتقييد بالجملة الحالية دلّ على وجوب العدل، ولو كان المقول في حقه صاحب قرابة، وتعريف"العهد" بالإضافة دلّ على تفخيم وتعظيم العهد مما يستوجب

الوفاء به، وجاء الأمر بالوفاء بالكيل والميزان في آية (الأعراف) مؤكداً بالنهي عن بخس الناس أشاءهم قلّت أو كثرت، ودلّت مضارعية الصيغة على تجدد نهيهم في كل ما يحدثونه من إفساد، وجاء قوله في سورة (يوسف): " أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ المُنْزِلِينَ " كناية عن وعده ﷺ بأنه يوفّى لهم الكيل ويكرم ضيافتهم إن أتوه بأخيهم، وفيه ترغيب لهم في العود إليه، وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي دلّ على تقوية الحكم وتوكيده، وتأكيد مضمونالخبر، فهو ﷺ غاية في الإحسان وإكرام الضيف ، وجاء الأمر في قول إخوته له: "أَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا " مراداً به الالتماس مع الانكسار، فهم يلتمسون منه ﷺ أن يوفى لهم الكيل ويتصدق عليهم، فبضاعتهم رديئة لا تعادل ما يطلبونه فيها، وعللوا طلبهم بقولهم: " إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي المُتَصَدِّقِينَ " وهو من المعاريض التى هي مندوحة عن الكذب، وجاء الأمر بإيفاء الكيل في سورة (الإسراء) مقيداً بالشرط ليدلّ على وجوب الوفاء، وألا يتأخر الإيفاء عن وقت الكيل. وكان للتقييد بالشرط والحال والظرف وغير ذلك..عظيم الأثر في بيان فضل الوفاء، وعظم الأجر المترتب عليه.

المبحث الثالث

الوفاء بالنذر

ورد الحديث عن الوفاء بالنذر – وهو ما أوجبه الإنسان على نفسه من طاعة لله – تعالى – لم يلزمه بها – فى موضعين من القرآن الكريم [1]، أولهما: ما ورد فى سورة الحج، فبعد أن أمر سيدنا إبراهيم ﷺ بأن ينادى في الناس بالحج، وأعلمه الحق – سبحانه – أنهم سيأتونه مشاةً وركباناً، وذلك ليشهدوا المنافع الدنيوية والأخروية، ويذكروا اسم الله – تعالى – على بهيمة الأنعام قال: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيقِ﴾ الآية:٢٩. أي: ليقضوا نسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذى الذى لحقهم فى حال الإحرام، ويؤدوا ما أوجبوه على أنفسهم، ويطوفوا بالبيت الحرام. [2]

أسرار النظم وبلاغته:

قوله " ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ... " هذا من جملة ما خاطب الحق – سبحانه – به سيدنا إبراهيم ﷺ و" ثُمَّ " للتراخي الرتبى لا الزمني، فتفيد أن المعطوف بها أهم فى الغرض المسوق إليه الكلام من المعطوف عليه، وذلك فى قضاء التفث، والوفاء بالنذر، والطواف بالبيت العتيق، فهذا أهم من نحر الهدايا.

وقد ترددت كلمة المفسرين وعلماء اللغة فى معنى " التفث " فمنهم من قال أنه الوسخ والدرن، ومنهم من جعله قصّ الأظافر، والأخذ من

---

(١)المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: وفى .

(٢)ينظر فتح القدير:٣/٤٥٠.

الشارب ، وكل ما يحرم على المحرم، وقيل: الرميّ والذّبح ، وقال الطاهر ابن عاشور: إنه عمل من أعمال الحج وليس وسخاً ولا ظفراً ولا شعراً ، واستدل بما روى عن ابن عمر وابن عباس : التفث مناسك الحج وأفعاله كلها ، وأن موقع " ثُمَّ " في عطف جملة الأمر على ما قبلها يدل على معنى التراخي الرتبى وهو يدل على أن المعطوف بها أهم مما ذكر قبلها فأعمال الحج هي المهمة في الإتيان إلى مكة . [1]

ولا مانع أن يراد بالتفث قضاء مناسك الحج وإزالة ما علق بهم من أذى لحقهم فى حال إحرامهم .

والأمر فى قوله " لْيَقْضُوا، وَلْيُوفُوا، وَلْيَطَّوَّفُوا " على حقيقته فأفاد طلب الفعل على جهة الوجوب ، وقد دخلت لام الأمر على الفعل المضارع فأفادت الطلب المستمر للقضاء والوفاء والطواف ، ودل تضعيف العين فى قوله " لِيَطَّوَّفُوا " على تكرار الطواف .

ووصف البيت بالعتيق لأنه قديم ، فهو أول بيت وضع للناس بناه آدم ثم جدده إبراهيم – عليهما السلام – أو لأنه كريم ومنه عتاق الخيل لكرائمها ، وعتاق الرقيق لخروجه من ذل العبودية إلى كرم الحرية . أو لأنه أعتق من الغرق أو من أيدي الجبابرة أو من أيدي الملاك فلم يملك قط ، فشبّه بالعبد العتيق فى أنه لا ملك لأحد عليه . وفيه تعريض بالمشركين إذ كانوا يمنعون منه من يشاءون . [2]

([1])ينظر تفسير أبى السعود: ١٠٤/٦، وتفسير النسفى:١٠٢/٣، والتحرير والتنوير: ٢٤٩/١٧.

([2])ينظر تفسير النسفى :١٠٢/٣، والتحرير والتنوير: ٢٥٠/١٧.

والآية الأخرى فى الوفاء بالنذر قوله تعالى فى وصف الأبرار ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ الإنسان: ٧. وتأتى هذه الآية فى سياق الحديث عن صفات الأبرار التى استحقوا بها أن يتبوّءوا أعلى الدرجات فى الجنات ، فذكر بعض ما كان منهم فى الدنيا، فهم دائموا الوفاء بكل ما أوجبوه على أنفسهم ، وهم على ما أوجبه الله عليهم أوفى ، فهم يخافون من كل ما يجرّ إليهم العقاب فى يوم استطار شره واشتد عذابه على من ساء عمله ولم يوف بنذره .

أسرار النظم وبلاغته :

قوله: " يُوفُونَ بِالنَّذْرِ " أي : يؤدون ما أوجبوه على أنفسهم من الطاعات أداءً وافياً دون نقص أو تقصير فيه. ومضارعية الصيغة فى قوله: " يُوفُونَ " تدل على تجدد وفائهم بالنذر وبما أوجبوه على أنفسهم من طاعة الله – سبحانه – تقرباً إليه، واستمرار ذلك منهم كلما جددوا نذراً، والتعريف فى " النَّذْرِ " يفيد العموم والشمول ، فيعم ويشمل كل نذر عقدوه على أنفسهم ما دام فى طاعة الله – سبحانه – لقوله ﷺ : " من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه " [1]، وفصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال، فالجملة الأولى مثيرة لسؤال وتصلح هذه الجملة أن تكون جواباً عنه ، فكأن سائلاً قال : لم نالوا ما نالوه من النعيم فى الآخرة ؟ فذكر بعضاً من أعمالهم الصالحة فى الدنيا التى كانت سبباً فى دخولهم الجنات وتمتعهم بالخيرات.

([1])الحديث رواه البخاري، ك الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية:١٧٧/٦.

وقدّم الوفاء في طليعة الأوصاف مبالغة فى وصف الأبـرار بـالتوفر على أداء الواجبات والفرائض ، لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه كان بما أوجبه الله عليه أوفى .. وفى ذلك زيادة فى تقربهم إلـى الله – تعالى .

وقوله " وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً " أي : يـوم القيامـة ، ووصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمـالين مع عدم المانع ، فكلاهما خبرية لفظاً ومعنى " لأنهم لما وصفوا بالعمـل بما ينذرونه أتبع ذلك بذكر حسن نيتهم، وتحقق إخلاصهم فى أعمالهم ، لأن الأعمال بالنيات ، فجمع لهم بهذا صحة الاعتقاد وحسن الأعمال .[1]

ومضارعية الصيغة فى قوله : "يَخَافُونَ" تشير إلى تجدد خوفهم مـن هول ذلك اليوم وما يقع فيه ، فهم دائماً على ذكـر منـه ، لا يفـارق مخيلتهم ، وبذلك استقاموا على طاعة الله ، فاستحقوا أن يكونوا أبراراً فى الدنيا فى جنة الأخيار فى الآخرة.

وفى إسناد الخوف إلى اليوم مجاز عقلي علاقته الزمانية ، فهم يخافون ما يجرى فى ذلك اليوم من الحساب والجزاء على الأعمال السيئة بالعقاب فعلق فعل الخوف بزمان الأشياء المخوفة ... لأن المراد بالخوف خوفهم فى الدنيا من ذنوب تجرّ إليهم العقاب فى ذلك اليوم، وليس المراد أنهم يخافون فى ذلك اليوم، فإنهم فى ذلك اليوم آمنون. [2] ونكّر " يَوْماً " للتفخيم والتهويل من شأنه ، فهو يوم شديد عظيم مرعب لشدته وضراوته وهول ما يقع فيه . وعبّر بالماضي " كان " عن

(1)التحرير والتنوير : ٣٨٣/٢٩ .
(2)المرجع السابق نفسه .

المستقبل " يكون " للدلالة على تحقق استطارة شرّ ذلك اليوم ، فشرّ ذلك اليوم إنما يكون فى المستقبل . " وحقيقة الاستطارة من صفات ذوات الأجنحة، يقال: طار الطائر، واستطرته أنا إذا بعثته على الطيران، ويقولون: استطار لهيب النار، إذا انتشر وعلا، وظهر وفشا، فكأنه سبحانه قال: يخافون يوماً كان شره فاشياً ظاهراً وعالياً منتشراً. [1] ففيها استعارة مكنية ، فقد شبه ما فى هذا اليوم من أهوال عظيمة بالنار التى يتطاير شررها أو بانتشار الطير فى الجو بجامع الانتشار فى كل ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهى " الاستطارة " فهي من لوازم الطير، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية .

وقد أوضحت الاستعارة عظم هذا اليوم وهوله ، وشدته ، وضراوته وأبرزت المعقول فى صورة المحسوس حتى يكون أسرع إلى الإدراك ، فالنفس مفطورة على إدراك المحسوسات .

* * *

وبعد فقد رأينا أن الوفاء بالنذر لم يرد إلا في موضـعين مـن القـرآن الكريم؛ لأنه لم يوجبه الله تعالى، فالإنسان هو الذي ألـزم بـه نفسـه، فجاءت آية (الحج) وقد تكرر فيها لفظ المضارع المسبوق بـلام الأمـر ليدل على الطلب المستمر، وذلك بأسلوب موجز بليـغ ، وجـاءت آيـة (الإنسان) والتي تتحدث عن صفات الأبرار مصدرة بالمضارع " يُوفُونَ" الذي يدل على استمرار وفائهم وتجدده كلما أوجبوا على أنفسهم شـيئاً، ولذا قدّم الوفاء في طليعة الأوصاف مبالغة في وصف الأبرار بـالتوفر

(1)تلخيص البيان فى مجازات القرآن ، ٣٠٦

على أداء الواجبات والفرائض، وفي الوصل بين قوله:" يُوفُونَ بِالنَّـذْرِ " وقوله: " وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً " دلالة على حسن نيتهم وتحقق إخلاصهم في عملهم، ومضارعية الصيغة "يَخَافُونَ" تدلّ على تجدد خوفهم من هول ذلك اليوم، وجاء تنكير" يَوْماً " مفيداً التفخيم والتهويل من شأنه، ومما يقع فيه، وللدلالة على تحقق استطارة شره جاء التعبير بالماضي " كَانَ " وأوضحت الاستعارة فيه عظم هذا اليوم وهوله، وأبرزته في صورة المحس ليكون أقرب للإدراك.

المبحث الرابع

الوفـــاء بالأجـر والجـــزاء

ومن الآيات في ذلك قوله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّـهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُـونَ إِلاَّ ابْتِغَـاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ البقـرة : ٢٧٢ .

سبب النزول :

روى فى سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ كان يأمر ألا يتصدق إلا على أهل الإسلام فنزلـت هـذه الآية " لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ... " فأمر بالتصدق على كل من سأل من كـل دين.

أسرار النظم وبلاغته :

قولـه " لَـيْسَ عَلَيْـكَ هُـدَاهُمْ " الخطـاب موجـه إلـى النبـي ﷺ، وهو أسلوب قصر ، طريقه التقديم ، حيث قدّم المسند " عَلَيْـكَ " علـى المسند إليه " هُدَاهُمْ " فهدايتهم ليست مقصورة على النبي ﷺ ، وإنمـا هي على الله سبحانه ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وفي ذلـك تسلية للنبي ﷺ حتى لا يزداد حزنه وقلقه علـى هـدايتهم ، فهـدايتهم موقوفة على الله – تعالى – فهو يهدى من يشاء . ولما كـان قولـه " لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ " يحتمل هدايتهم مع شدة الحرص والإلحـاح ، بـين الحق – سبحانه – أنه لا فائدة ممن لم يشأ هدايته فقال " وَلَكِـنَّ اللَّـهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ " لبيان أن هداهم بيده تعالى وحده ، وقدّم المسند إليـه لفظ الجلالة " اللَّهَ" على خبره الفعلي " يَهْـدِي مَـن يَشَـاءُ " لإفـادة

الاختصاص وتقوية الحكم وتوكيده ، فهداهم إنما يكون من الله – تعالى – لا يتعداه إلى النبي ﷺ ومضارعية الصيغة فى قوله " يَهْدِي " تدل على تجدد هدايته – سبحانه – لهم ، وفى قوله " وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ " أسلوب قصر ، طريقة النفي والاستثناء ، حيث قصر صفة الإنفاق على ما كان لله خالصاً له ، لا للرياء والسمعة أو لمراعاة حال المُعطى من إيمان وغيره ، قصْر صفة على موصوف ، ويحتمل أن يكون خبراً بمعنى الإنشاء أي : لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله ، أو أنفقوا ابتغاء وجه الله تعالى ، وفى دلالة على تأكيد جعل الإنفاق خالصاً لله تعالى ، دون نظر إلى ما يدين به المُعطَى ، وذلك بأسلوب قريب للنفس ليكون أدعى للامتثال ، فالنفس تأبى الأمر ، والتقييد بالمفعول فى قوله " ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ " وذلك للحث على أن يكون الإنفاق مقصوداً به وجه الله تعالى . و" مِنْ " في قوله تعالى " وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ" لتوكيد الاستغراق والعموم أي : من أي خير كان ، ومضارعية الصيغة وبناؤها للمفعول فى قوله " يُوَفَّ إِلَيْكُمْ" تدل على تجدد الوفاء لهم فى الأجر والجزاء، وفيها تركيز للاهتمام على أمر الوفاء وتوفية الأجور ، فلا أحد أوفى من الله تعالى .

وقد كرر فعل الإنفاق فى هذه الآية ثلاث مرات، حيث جيء به مرتين بصيغة الشرط" وَمَا تُنفِقُوا... وَمَا تُنفِقُوا" لبيان الملازمة بين الإنفاق والثواب، وجيء به مرة واحدة فى صيغة النفي والاستثناء" وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ" لأنه قصد الخبر بمعنى الإنشاء وأتى بفعل الإنفاق مفصلاً " وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ " بصيغة الشرط ، ثم قوله" وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ " بصيغة القصر، ثم قوله " وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ " بالعطف على ما فى قبله لبيان أن جزاء النفقات

بمقدارها،وأن من نقص له من الأجر فهو الساعي في نقصه. (١)

وقدّم المسند إليه" أَنْتُمْ " على خبره الفعلي " لاَ تُظْلَمُونَ " لإفادة تقوية الحكم وتوكيده، وبيان أنهم لا يظلمون نقيراً، فجزاؤهم كائن ومحقق، وإنما يظلمون أنفسهم بالبخل والتقتير واتباع هوى النفس وشهواتها .

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٨١. ففي الآيات السابقة لمّا ختم الحق – سبحانه – آيات الرّبا بقوله " وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون " (٢) حذّر في هذه الآية من ذلك اليوم والشواغل والصوارف التى تصرف عنه ، لأنه فى هذا اليوم تجازى كل نفس عن كل ما قدمته، وتأخذ جزاءها وافياً، ولا تنقص منه شيء.

أسرار النظم وبلاغته :

قوله " وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ " المراد باتقائه اتقاء ما يحدث فيه من الأهوال والعذاب ، وهو تذييل لما سبق من أحكام ، لأنه صالح للترهيب من ارتكاب ما نهى عنه والترغيب فى فعل ما أمر به أو ندب إليه .

ونكّر" يَوْماً " لإفادة التفخيم والتهويل من شأن هذا اليوم، وما يقع فيه، فهو من إطلاق اسم الزمان على ما يقع فيه، وهو مفعول والتقييد به لبيان لازم ذكره من الإيمان به والاستعداد له بالعمل الصالح. وقوله:

---

(١) ينظر تفسير أبى السعود: ٢٦٤/١، والتحرير والتنوير: ٧٢/٣ وما بعدها.

(٢) البقرة: ٢٨٠

" تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ " فيه إيجاز بحذف المضاف أي : إلى حكم الله ووعده وبنى الفعل للمفعول لتركيز الاهتمام على أمر الرجوع فى هذا اليوم وما يقع فيه من أهوال ، حيث يحاسب المرء على كل ما قدمت يداه .

وكذا الفعل " تُوَفَّى " لتركيز الاهتمام على أمر الوفاء ، حيث تجازى كل نفس على ماأعملته فى الدنيا جزاءً وافياً ، وقريب من ذلك جاء قوله فى سورة آل عمران " ووفّيت كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ " [1] وعبر فيها بالماضي "وفّيت" عن المستقبل لتحقيق وتأكيد أمر الوفاء، حيث يجازون على أعمالهم جزاءً وافياً. وأفاد العموم فى قوله " كُلُّ نَفْسٍ" المبالغة في التهويل من شأن هذا اليوم. وقوله " ما كَسَبَتْ " أي: جزاء ما كسبته ففيه إيجاز بالحذف حيث حذف المضاف، فما عمله المرء لا يوفاه بعد عمله وإنما يوفّى جزاءه .. وقدّم المسند إليه على خبره الفعلي في قوله " وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ" لتأكيد عدل الله ووفائه ، ولبيان أنهم لا ينقصون من أجورهم شيئاً، والجملة " حال من كل نفس تفيد أن المعاقبين وإن كانت عقوباتهم مؤبدة غير مظلومين فى ذلك لما أنه من قبل أنفسهم، وجمع الضمير لأنه أنسب بحال الجزاء، كما أن الإفراد أوفق بحال الكسب، وهذه الآية فيها الموعظة الحسنة لجميع الناس،وهى مع إيجازها تحمل فى طياتها الكثيرمن المعاني،وعن ابن عباس– رضي الله عنهما– أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام.[2]

([1])آل عمران: ٢٥ .

([2])ينظر تفسير أبى السعود:٢٦٨/١، وفتح القدير:٢٩٩/١.

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ آل عمران: ٥٧ . ففي الآيات السابقة لمّا أخبر الحق سبحانه أنه رافع سيدنا عيسى عليه السلام إليه، ومخلصه ممن أرادوا قتله، وظاهر من آمن به على من كفر به إلى يوم القيامة، ثم يكون إليه المرجع ، فيحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من أمر سيدنا عيسى عليه السلام فالكافرون به وبنبوّته يكن لهم العذاب فى الدنيا بالقتل والسبي، وفى الآخرة بنار جهنم ، عطف على ذلك ما يكون للمؤمنين من توفية الأجور وإعطائها كاملة غير منقوصة، فنقصانها ظلم والله لا يحب الظالمين.

أسرار النظم وبلاغته :

قوله: " وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ " بيان للمؤمنين وما يكون لهم فى الآخرة، ووصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، وفى قوله " فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ " التفات من ضمير المتكلم فى قوله فى الآية السابقة " أعذبهم " إلى الغيبة فى قوله " يُوَفِّيهِمْ " وذلك " للإيذان بما بين مصدري التعذيب والإثابة من الاختلاف من حيث الجلال والجمال ، وقرئ " فَنُوَفِّيهِمْ " جرياً على سنن العظمة والكبرياء " [1] أي: يوفيهم أجور أعمالهم كاملة دون نقصان، وتعريف المسند إليه بالموصولية " الَّذِينَ" للإيماء إلى وجه بناء الخبر فإيمانهم وعملهم الأعمال الصالحة، جعلهم يوفون أجورها دون نقصان، وأخّر بيان حالهم لأنهم المؤخرون فى الذكر، ولأنهم يبقى لهم الغلبة والسيادة إلى يوم القيامة، بخلاف الكافرين

([1])تفسير أبى السعود٤٥/٢٠

فهم المقدّمون في الذكر حيث أخبر الحق سبحانه نبيه أنه مطهره منهم ولذا أتى بالفاء التى تدل على السرعة للإيماء إلى سرعة زوال ملكهم وغلبتهم وسوء عاقبة مآلهم.

بخلاف ما ورد فى سورة النساء فبعد أن بيّن أن المسيح عليه السلام لن يأنف عن العبودية ويعيبها ولن ينقطع عنها ، ومن يأنف ويتكبر عن العبادة فسيحشر إليه ويجازيه ، وترك ذكر غير المستنكف لكون الحشر يشمل الفريقين ، بدأ بذكر الفريق الذى طوى ذكره وقدّم بيان حاله على حال الفريق الذى يقابله فقال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ الآية: ١٧٣ وذلك للمسارعة إلى بيان فضله ، وأن حشره معتبر فى الإجمال وإيراده بعنوان الإيمان والعمل الصالح للتنبيه على أنه المستتبع لما يعقبه من الثمرات، فيوفون أجورهم ويزيدهم من فضله بتضعيفها أضعافاً مضاعفة. (١)

وجاءت مضارعية الصيغة – أيضاً – فى سورة النور دالة على تجدد وفائه تعالى لجزاء هؤلاء الذين تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بأعمالهم وذلك فى قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ ﴾ الآية: ٢٥ فيجازيهم الله تعالى الجزاء العادل الذى لا ظلم فيه ولا جور.

وقوله " وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ " تذييل مؤكد لمضمون ما قبله ، وهو عدل الله ووفاؤه ، وهو كناية عن بغض الحق سبحانه للظلم والظالمين ، وفيها إيماء لحب الله تعالى للمؤمنين الذين يعملون الأعمال

(١) ينظر المرجع السابق:٢٦٢/٣.

الصالحة ، ووصل بين هذه الجملة وما قبلها للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع، وقدّم المسند إليه لفظ الجلالة "اللَّهُ"على خبره الفعلي لتأكيد عدم حبه تعالى للظلم والظالمين وبيان كمال وفائه تعالى وكرمه لعباده المؤمنين .

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ آل عمران : ١٨٥. فهذه الآية مرتبطة بأصل الغرض المسوق له الكلام، وهو تسلية المؤمنين على ما أصابهم يوم أحد ، وأنه لابد من استقرار هذه الحقيقة فى النفس ، فإن كل نفس تذوق هذه الجرعة وتفارق هذه الحياة ، لا فارق بين نفس ونفس فى تذوق هذه الجرعة من هذا الكأس الدائر على الجميع ، إنما الفارق فى قيمة أخرى ، الفارق فى المصير المحتوم. (١)

أسرار النظم وبلاغته :

قوله تعالى " كُلُّ نَفْسٍ " عام يشمل جميع الأنفس، ونكّر " نَفْس " لإفادة العموم والشمول، فالموت يحلّ بجميع المخلوقات، وهو نازل بها بلا محالة . وفى قوله " ذَائِقَةُ المَوْتِ " استعارة مكنية حيث شبه الموت بمطعوم بجامع الإحساس فى كل ، ثم استعير لفظ المشبه به للمشبه، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو " الإذاقة " وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، وقد أوضحت الاستعارة المعنى وأبرزته فى صورة ملموسة محسة ، ليكون أقرب للإدراك، فالنفس مفطورة على المحسوسات، وفيه مزيد من التهويل والتخويف والترهيب من الموت

(١) ينظر فى ظلال القرآن: ٥٣٨/١

وما يعقبه، فالموت " قليل من كثير يعقبه ، وأنه مقدمة كأنموذج الذائق، وبهذا الاعتبار يكون فيه المبالغة، وإن أشعر الذوق بقلته". (١)

وقوله:" وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ " التوفية : إعطاء الحق وافياً ، أي أن توفية الأجور وتكميلها إنما تكون فى ذلك اليوم ، وما يقع من الأجور فى الدنيا أو فى البرزخ فإنما هو بعض الأجور ، والأجور جمع " أجر " ويكون فى حق المؤمن ثواب، وفى حق الكافر عقاب، وجمعت الأجورمراعاة لأنواع الأعمال. (٢)وهو أسلوب قصر، حيث قصرت صفة" توفية الأجور" على" يَوْمَ القِيَامَةِ" قصر صفة على موصوف ، قصراً إضافياً ، وهو قصر قلب، لتنزيل المؤمنين فيما أصابهم من الحزن على قتلاهم، وعلى هزيمتهم ، منزلة من لا يترقب من عمله إلا منافع الدنيا، وهو النصر والغنيمة، مع أن نهاية الأجر فى نعيم الآخرة. وفيه تعريض بأنهم قد حصلت لهم أجور عظيمة فى الدنيا على تأييدهم للدين منها: النصر يوم بدر، ومنها كف أيدي المشركين عنهم فى أيام مقامهم بمكة إلى أن تمكنوا من الهجرة. (٣) ومضارعية الصيغة فى قوله " تُوَفَّوْنَ " تدل على تجدد توفية الأجور لهم، وفى بنائها للمفعول وتضعيفها دلالة على كمال العناية والاهتمام بالحدث، والمبالغة فى توفية الأجور لهم فى الآخرة . وكل منفعة تصل إلى المكلف فى الدنيا فهي مكدرة بالغموم والهموم، ويخاف الانقطاع والزوال، والأجر التام والثواب الكامل يصل إلى المكلف يوم القيامة، لأن هناك يحصل السرور بلا غمّ ،

(١) حاشية الشهاب: ٢٨٣/٤ .

(٢) ينظر لسان العرب: " وفى " وتفسير فتح القدير: ٤٠٨/١ ط. الحلبى .

(٣)ينظر التحرير والتنوير: ١٨٨/٤.

والأمن بلا خوف، واللذة بلا ألم، والسعادة بلا خوف الانقطاع، وكذا القول فى جانب العقاب، فإنه لا يحصل فى الدنيا ألم خالص عن شوائب اللذة، بل يمتزج به راحات وتخفيفات، وإنما الألم التام الخالص الباقي هو الذي يكون يوم القيامة. (١) وقوله " فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ " الزحزحة: التنحية والإبعاد، تكرير الزَّح (٢) وهى كلمة ترسم بجرسها صورة لمعناها، فالفعل " زُحْزِحَ " رباعي مضعف ، وهو يدل على تكرار الفعل وحدوثه مرة تلو أخرى كزلزل وقلقل ... وغيرهما، وهو مكون من مقطعين، مقطع " زحّ " مكرر ، فالحركة متكررة تبعاً لتكرر الحروف، وأنت " لا ترى فى المعجم غير كلمة " زحزح " تصور مشهد الإبعاد والتنحية بكل ما يقع فى هذا المشهد من أصوات، وما يصاحبه من ذكر الذى يمر بحسيس النار، وما يسمعه ويكاد يصلاه ". (٣)

وفى بناء " زُحْزِحَ و أُدْخِلَ " للمفعول إشارة إلى كمال العناية والاهتمام بالزحزحة عن النار، والنجاة منها، ودخول الجنة، ودخول " قَدْ " على الفعل الماضي " فَازَ" في جواب الشرط يدل على تحقق فوزه ونجاته، وأنه قد نال المنزلة العليا، وكذا المقابلة بين الزحزحة عن النار ودخول الجنة. والنار هي دار العقاب التى أعدها الحق – سبحانه – للمذنبين فى الآخرة، ويحتمل أن يراد بها الدنيا وشهواتها ولذاتها فيكون فيها مجاز مرسل علاقته المسببية، حيث أطلق المسبب "النَّار " وأراد

(١)التفسير الكبير: ١٢٦/٩.

(٢)تنوير المقياس من تفسير ابن عباس:٥٠.

(٣)الإعجاز فى نظم القرآن:١١٦

السبب " الدنيا وشهواتها ولذاتها " فمن نجا من الدنيا وابتعد عن شهواتها ولذاتها الداعية إلى النار، وأدخل الجنة فى الآخرة فقد فاز، وفى التعبير عن آفات الدنيا وشهواتها الداعية إلى النار بـ " النَّار " دلالة على سرعتها وقرب زوالها وفنائها.[1] وجمع بين " زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ " و " وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ " مع أن فى الثاني غنية عن الأول للدلالة على أن دخول الجنة يشتمل على نعمتين عظيمتين: النجاة من النار، ونعيم الجنة ".[2] وقوله " وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ " المتاع: هو كل ما استمتع به الإنسان من مال وغيره، وقيل: المتاع كالفأس والقدر والقصعة ونحوها، والغرور: كل ما يغر الإنسان من مال وجاه، وشهوة وشيطان مما لا يدوم، وقيل: الغرور: الباطل، وقيل: الغَرور بالفتح: الشيطان"[3] ولا يمنع السياق أن يكون المراد كل هذا، فمتاع الدنيا قليل فانٍ. وهو أسلوب قصر، حيث قصر"الحَيَاةُ الدُّنْيَا" على " مَتَاعُ الغُرُورِ " قصر موصوف على صفة قصراً حقيقياً، وفى ذلك إشارة إلى رداءة الحياة الدنيا وفنائها وسرعان زوالها، وذلك لمن أمعن النظر فيها.

وهو خبر مراد به توطين النفوس وتهيئتها للشدائد ، ولذا يقول الإمام الزمخشري: خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها، حتى إذا لقوها وهم

(1)مستفاد من قول الإمام الرازي عند تفسيره لهذه الآية " إن الإنسان حينما كان في الدنيا كأنه كان في النار، وما ذلك إلا بكثرة آفاتها ، وشدة بلياتها " ١٢٦/٩.

(2)التحرير والتنوير: ١٨٩/٤ .

(3)ينظر تفسير الخازن: ٤٦١/١، المفردات: " غرر ".

مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من يصيبه الشدة بغتة فينكرها، وتشمئز منها نفسه ".[1] وفيه تشبيه بليغ حيث شبهت الحياة الدنيا بالمتاع الذى يدلس به على المشترى فيُغَر، حتى يشتريه بجامع الخداع فى كل، فالدنيا كذلك لم اتخذها لذاتها وشهواتها.

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ الأنفال:٦٠. لما تبين فى الآيات السابقة أن أهل الكتاب الذين أمّنهم النبي ﷺ على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم خانوه وأعانوا عليه المشركين ، بين فى هذه الآية ما يجب على المؤمنين فعله من الاستعداد لهم بإعداد أسباب القوة المادية والروحية ، وحبس الخيل انتظاراً للعدو ، وكل ما يحتاج إليه فى الحرب ، لإرهاب المشركين ومن وراءهم ، الذين خفي أمرهم على المسلمين ، والله عالم بهم ، ومطلع عليهم ، وكل ما يبذل فى سبيل هذا الإعداد يكون جزاؤه وافياً من الله – تعالى – لا ينقصون منه شيئاً .

أسرار النظم وبلاغته :

قوله " وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ " الأمر فيه مستعمل فى معناه الحقيقي إذ لم يكن إعداد القوة حاصلاً للمسلمين وقت الخطاب .

(1)ينظر الكشاف: ٤٨٦/١، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٤٣٤.

والمراد بالقوة الرمي، فقد روى عقبة بن عامرعن النبي ﷺ أنه قرأ هذه الآية على المنبر ثم قال:" ألا إنّ القوّة الرمي، ألا إنّ القوّة الرمي، ألا إنّ القوّة الرمي". (١)

وقيل: المراد بالقوة جميع ما يتقوى به فى الحرب على العدوّ ، فكل ما هو آية يستعان به فى الجهاد فهو من جملة القوة المأمور بإعدادها ، ولذا علق الحق سبحانه الأمر بإعداد القوة على الاستطاعة وذلك فى قوله " ما استَطَعْتُم " لطفاً منه بعباده (٢) وعلى هذا فالتنكير في قوله " من قُوَّةٍ " يفيد العموم ، وذلك ليشمل جميع أسباب القوة. وتفسير النبي ﷺ لها بالرّمي يدل على أهمية الرّمي من بين أسباب القوة الأخرى، ولأنه كان يستنصر به فى هذا الزمان ، فهو من أهم أسباب النصرة، فبه كانت النصرة على المسلمين فى غزوة أحد ... والتعبير بـ " ما " ووقوعها مفعولاً للفعل"أعِدُّوا" يدل على حث المسلمين على إعداد كل ما تصل إليه قدرتهم من القوة التى يتقوى بها في الحرب، وذلك لما تفيده " ما " من العموم والشمول، ويأتي تنكير " قُوَّةٍ " فيضفى على السياق مزيداً من الرهبة، وذلك لما فى التنكير من الدلالة على عظم هذه القوة وعمومها،وشدة بأسها ووقعها على نفوس الكفار ومشاعرهم، ويشمل القوة الروحية – أيضاً – بالعبادة واللجوء إلى الله تعالى. وتقديم الجار والمجرور" لهم " يفيد قصر هذا الإعداد على هؤلاء الأعداء، قصراً إضافياً، و" رِبَاطِ الخَيْلِ " أي حبسها للجهاد فى سبيل الله، وهو كناية عن القوة المجهّزة والمعدة للقتال فى كل وقت " وعطف " رِبَاطِ الخَيْلِ " على "

(١)رواه مسلم ، ك الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه:١٥٢٢/٣.
(٢)ينظر تفسير الجلالين: ٢٥٣/٢، والبحر المحيط: ٥١١/٤ .

القوّة " من قبيل عطف الخاص على العام للاهتمام بذلك الخاص. " والرباط " صيغة مبالغة أتى بها هنا للمبالغة لتدل على قصد الكثرة من ربط الخيل للغزو عليها. (١)

وقوله " تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ " جاء الفعل " تُرْهِبُونَ " فى هذا السياق للدلالة على أن رهبة الكفار مرتبطة بقوة المسلمين، فكلما زادت قوة المسلمين زادت الرهبة فى قلوب الكفار المعاندين، وجاء هذا الفعل تعليلاً للأمر فى قوله"وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ " أي: أعدوا القوة لرهبة عدو الله وعدوكم.

وقدّم الجار والمجرور" به " للاهتمام بشأن القوة والاعتناء بها، وللدلالة على أن رهبة العدو مصدرها قوّة المسلمين. ومضارعية الصيغة " تُرْهِبُونَ " فيها دلالة على أن رهبة الكفار من المسلمين يجب أن تكون دائمة ومتجددة، ليكون ذلك مانعاً للكفار من التفكير فى الغدر والخيانة، فهؤلاء " ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم، والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة، ليكونوا مرهوبين فى الأرض ". (٢) وعرّف قوله:"عدو" بالإضافة إلى لفظ الجلالة " عَدُوَّ اللَّهِ " لبيان مدى شناعة وفظاعة جرمهم، ولأنه أخصر طريق لإحضارهم فى ذهن السامع، " ولقد ذكر أولاً " عَدُوَّ اللَّهِ " تعظيماً لما هم عليه من الكفر، وتقوية لذمهم، وأنه يجب لأجل عداوتهم لله أن يقاتلوا، ويبغضوا، ثم قال " وَعَدُوَّكُمْ " على سبيل التحريض على قتالهم، إذ في الطبع أن يعادى الإنسان من عاداه، وأن

(١)ينظر التحرير والتنوير: ٥٥/١٠.
(٢)في ظلال القرآن: ١٥٤٤/٣.

يبغى له الغوائل". [1] وقوله " وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ " ي: وترهبون به أناساً من غير هؤلاء الأعداء المعروفين أو من رائهم، لا تعرفون عداوتهم وذواتهم وأعيانهم بل الله يعلمهم فهو علام لغيوب . وقوله " اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ " تعريض بالتهديد لهؤلاء الآخرين، فالخبر ستعمل فى معناه الكنائى، وهو تعقبهم والإغراء بهم، وتعريض الامتنان على المسلمين بأنهم بمحل عناية الله، فهو يحصى أعداءهم ينبههم إليهم، وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي لتقوية وتأكيد الخبر تحقيقه وهو علم الله بهم. [2]

وقوله " وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ" أي: مهما نفقتم من شيء قليلاً كان أو كثيراً من القوة والمرابطة فى سبيل الله نالون عليه الجزاء الأوفى من الله – تعالى – فى الدنيا والآخرة. التنكير في قوله " شَيْءٍ " يفيد العموم والشمول. وفى قوله " يُوَفَّ إِلَيْكُمْ إيجاز بالحذف أي: يوف إليكم جزاء ما تنفقونه. وقوله " وَأَنْتُمْ لاَ ظْلَمُونَ " جملة حاليّة بينت كمال عدل الله وتنزيهه، أي: لا تظلمون بترك إثابة أو بنقص الثواب، والتعبير عن تركها بالظلم مع أن الأعمال غير وجبة للثواب؛ لبيان كمال نزاهته – سبحانه – عن ذلك بتصويره صورة ما يستحيل صدوره عنه– تعالى– من القبائح وإبراز الإثابة فى عرض الأمور الواجبة عليه تعالى. [3]

---

[1] البحر المحيط: ٥١٣/٤. والغوائل:الدواهي والمصائب. اللسان:"غال".

[2] ينظر التحرير والتنوير: ٥٧/١٠ .

[3] ينظر تفسير أبى السعود: ٣٢/٤، وروح المعاني: ٢٧/١٠، والفتوحات الإلهية: ٢٥٤/٢.

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾ هود: ١٥. وتأتى هذه الآية فى سياق الحديث عن الكافرين وافترائهم، وعدم إيمانهم، فبينت أنهم يطلبون الكبرياء والسيادة فى الدنيا، ولا يريدون أن يكونوا تبعاً لغيرهم فيها، كما أن فيها إيماءً للمسلمين بأن لا يغتروا بحسن حال الكافرين والبسط لهم فى أرزاقهم،ففي هذا استدراج لهم،كما أن كفرهم لا يوجب تعجيل العذاب لهم،فهم يوفّون جزاء أعمالهم في الدنيا،ولا ينقصون منه شيئاً جزاء كفرهم،ثم يكون لهم العذاب الأليم فى الآخرة.

أسرار النظم وبلاغته :

قوله " مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا "أي: من كان لا يطلب إلا منافع الحياة وزينتها، وهذا لا يصدر إلا عن الكافرين، لأن المؤمن لا يخلو من إرادة خير الآخرة وما آمن إلا لذلك. وهو استئناف ناشئ عن قوله فى الآية السابقة " فهل أنتم مسلمون " لأنهم إن كانوا طالبين الحق والفوز فقد استتب لهم ما يقتضى تمكن الإسلام من نفوسهم، وإن كانوا يطلبون الكبرياء والسيادة فى الدنيا لئلا يكونوا تبعاً لغيرهم ، فهم يريدون الدنيا، ولذا حذروا من الاغترار بالمتاع الفانى ، ومن كان كذلك فله العذاب الباقي . [1] ووصف " الحياة " بـ " الدنيا " يدل على حقارتها ودناءتها ، وأنها زينة فانية، وقوله " نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا " جواب الشرط، والتوفية: إعطاء الشيء وافياً كاملاً غير منقوص، فتوفى أعمالهم التى جعلوها لصالحهم، وتترك لهم كما أرادوها، لا يدخل عليها نقص، وهذه الأعمال غير مشوبة بطلب تكاليف الإيمان والجهاد، فكل ذلك لا يخلو من

---

[1] ينظر التحرير والتنوير: ٢٢/١٢.

نقصان فى تمتع أصحاب تلك الأعمال بأعمالهم، وهذا بخلاف المؤمنين حيث تتهيأ لهم أسباب التمتع بالدنيا فيتركون كثيراً منها مراعاة لمرضاة الله تعالى، وعدى الفعل" نُوَفِّ " بحرف " إلى " لتضمنه معنى نوصِّل أو نبلِّغ. وقوله " وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ " الضمير في قوله " فيها " يجوز أن يعود إلى " الحياة " وأن يعود إلى "الأعمال"[1]، والبخس: هو نقص الشئ على سبيل الظلم. [2] أي أنهم لا يجازون على كفرهم بسلب بعض النعم عنهم التى يتمتعون بها، فأعمالهم وافية لا يشوبها تكاليف الإيمان والجهاد، وكذا حياتهم فيوفون آجالهم دون نقص وتقديم المسند إليه " هُمْ " على خبره الفعلي " لاَ يُبْخَسُونَ " يدل على تأكيد الوفاء لهم، فهو مؤكد وثابت مهما كان منهم من كفر وعناد وطلب للدنيا بعيداً عن تكاليف الإيمان. ومضارعية الصيغة فى قوله " لاَ يُبْخَسُونَ " تدل على تجدد الوفاء لهم، وعدم نقصان أعمالهم ولذّاتهم وآجالهم كلما سعوا إلى ذلك سبيلاً، فيتركون وشهواتهم ولذّاتهم وفى ذلك استدراج لهم وإمهال. ومجيء هذه الجملة بعد قوله " نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيه" وصياغتها على هذه الصورة وذلك بتقديم المسند إليه على خبره الفعلي يدل على تأكيد الوفاء وتحققه منه تعالى. واسمية الجملة تدل على ثبوت وفائه تعالى وأنه لا يتخلف مهما قوبل بكفر وعناد ، وتمتع بالشهوات بعيداً عن المشقات .

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ هود :

(1)المرجع السابق نفسه.

(2)المفردات: بخس.

١٠٩. فتأتى هذه الآية تسلية للنبي ﷺ عما يحدث له من إصرار قومه على عبادة الأوثان من دون الله،فهم مقلدون لآبائهم، ولو أعملوا عقولهم لما عبدوها،ولكنه التقليد الأعمى،والله – تعالى– يوفيهم نصيبهم من العذاب هم وآباؤهم وفاءً غير منقوص.

أسرار النظم وبلاغته :

فى قوله " فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ " الخطاب عام لكل مخاطب ، ويحتمل أن يكون للنبي ﷺ تسليةً له على ما يلقاه من تكذيب قومه وكفرهم، فلا يكون عنده أدنى شك فى أن ما يلقاه من قومه مثل ما لقيه الرسل من أقوامهم، فالتنكير في قوله: " مِرْيَةٍ " يفيد التقليل، فعبادة هؤلاء كعبادة آبائهم من قبل، فقد توارثوها عنهم. وكذا لا يكون عنده شك وإن كان قليلاً فيما قد يعتريه من تعذيب الله لهم فى الدنيا كما حدث للأمم السالفة، أو ادخار عذابهم فى الآخرة، فالله تعالى لن يهلكهم بذنوبهم كما أهلك الأمم السابقة، وذلك ببركة دعائه ﷺ .

وفيه تشبيه عبادة كفار مكة بعبادة آبائهم، فهم متساوون فى المعتقد الفاسد فالكاف تفيد التسوية بينهم وبين آبائهم فى العبادة، ولتوكيد معنى التسوية بينهما جاء أسلوب التشابه [1] فى قالب القصر " مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ

(1)التشابه هو استواء المشبه والمشبه به في وجه الشبه دون زيادة أو نقصان، فإن أريد الجمع بين شيئين في أمر من الأمور من غير قصد إلى كون أحدهما ناقصاً في ذلك الأمر والآخر زائداً، سواء وجدت الزيادة والنقصان أو لم توجد فالأحسن ترك التشبيه إلى الحكم بالتشابه، ليكون كل واحد من الشيئين مشبهاً ومشبهاً به احترازاً من ترجيح أحد

كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم " وفى ذلك يقول صاحب البحر المحيط : " والتشبيه فى قوله " كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم " معناه أنّ حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت، وقد بلغك ما نزل بأسلافهم فسينزل بهم مثله ". [1] ومجيء التشبيه المفيد التسوية بين المشبه والمشبه به فى أسلوب القصر يدل على تأكيد التسرية والطمأنينة القلبية للنبي ﷺ ، وهو قصر إضافي قلبي ، فالنبي ﷺ ربما اعتقد أن تكرار دعوته لهم سيجعلهم يعبدون الله وحده ويتركون عبادة الأصنام، فأكد له الحق -سبحانه- ذلك وبين له أنهم كآبائهم حتى لا يشق على نفسه فى سبيل هدايتهم . وأكد قوله " وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ" بأكثر من مؤكد بـ " إنّ" ولام الابتداء واسمية الجملة والحال المؤكدة وهى قوله:" غَيْرَ مَنقُوصٍ " لتأكيد وتحقيق توفية أجورهم . وفى التعبير باسم الفاعل " مُوَفُّوهُمْ " ووضعه موضع المستقبل دلالة على تحقق وتوكيد توفيتهم أجورهم فهم آخذونه دون نقصان، فهو الجزاء الأوفى كما قال تعالى بعدما ذكر أن سعى الإنسان سيرى عند الحساب لتشريف المحسن بحسن عمله وانكسار المسيء بسوء فعله قال: ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى ﴾ النجم: ٤١. أي يجزى على عمله الجزاء التام والكامل، وبناء الفعل للمفعول لتركيز الاهتمام على جزاء الله -تعالى- ووفائه. وفى قوله " نَصِيبَهُمْ " استعارة تهكمية، وذلك لأن كلمة " نصيب " تستعمل فى الخير، واستعملت هنا فى الشر للتهكم والاستهزاء بالأمم المكذبة. وفى ذلك

المتساويين في وجه الشبه. ينظر المطول: ٢٣٥، ونظرات في البيان: ١٣٢ وما بعدها.

([1])البحر المحيط: ٢٦٥/٥.

يقول" الشهاب " :" وفيه تهكم لأن الحظّ والنصيب مما يطلب، فإذا كان الرزق فعلى ظاهره، فيكون عذراً لتأخر العذاب عنهم مع قيام موجبه، أي إنما أخر ما استوجبوه لأن لهم رزقاً مقدراً ما لم يتم لا يهلكون ... " . [1] وقد أبرزت الآية عبادة آبائهم فى صورة الحاضر المرئى ، فوضع المستقبل " يَعْبُدُونَ " موضع الماضي " عبد " وذلك لاستحضار صورتهم تقبيحاً وتشنيعاً عليهم فيما هم فيه من الغي والكفر والضلال .

ومن الآيات قوله تالي ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ هود: ١١١. فلما أخبر الحق – سبحانه – فى الآية السابقة أنه أنزل الكتاب على موسى عليه السلام فاختلف فيه اختلافاً كثيراً ، ولولا وعد الله بتأخير القضاء بينهم ليوم القيامة – لأنهم أهل كتاب – لأهلكهم، ولذا ظلوا فى شك منه، وإذا كان هذا شأنهم مع التوراة وهى كتابهم المنزل على نبيهم، فلا يستغرب موقفهم من القرآن. ولما أخبر بذلك بيّن في هذه الآية أنه لابد وأن يقضى بينهم يوم القيامة بحكمه وعد له، فيجازى كل إنسان على ما قدمت يداه، فهو عليم خبير بهم.

أسرار النظم وبلاغته :

قوله " وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ " أي: وإن كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين لمّا ليوفينهم ربك جزاء أعمالهم: فالتنوين فى " كُلاًّ " عوض عن المضاف إليه المحذوف. وفى قوله " أَعْمَالَهُمْ " إيجاز بحذف المضاف، فما عمله المرء يوفى جزاؤه. فجميع الخلق يلاقون جزاء أعمالهم، لا يفلت أحد من المختلفين . وأكدت الجملة بأكثر من مؤكد يقول الإمام الفخر الرازي – رحمه الله: سمعت بعض الأفاضل

([1])حاشية الشهاب: ١٤١/٥.

قال: إن الله – تعالى – لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين فى هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات أولها: كلمة " إنّ " وهى للتأكيد، وثانيها:" كل " وهى أيضاً للتأكيد ، وثالثها : اللام الداخلة على خبر " إنّ "، ورابعها: حرف " ما " إذا جعلناه موصولاً على قول الفراء [1]، وخامسها: القسم المضمر، وسادسها: اللام الداخلة على جواب القسم ، وسابعها: النون المؤكدة فى قوله " لَيُوَفِّيَنَّهُمْ "، وذلك حتى لا يشك أحد فى الجزاء والوفاء من جراء الأنظار والتأجيل، وحتى لا يشك أحد فى أن ما عليه القوم هو الباطل الذى لاشك فى بطلانه، وأنه الشرك الذى زاوله من قبل كل المشركين...وتثبيت القلوب المؤمنة لا يكون بشيء كما يكون بتوكيد أن أعداءها هم أعداء الله،وأنهم على الباطل الذى لاشك فيه...ويكون بجلاء حكمة الله في إمهال الظالمين، وإرجاء الطغاة إلى يوم معلوم ينالون فيه جزاءهم ولا يفلتون". [2]

ومضارعية الصيغة فى قوله: " يُوَفِّيَنَّهُمْ" تدل على تجدد وفائه – تعالى – واستمراره لجميع الأولين والآخرين فيجازيهم على أعمالهم – وجاءت مضارعية الصيغة – أيضاً – للدلالة على وفائه تعالى وتفضله بزيادة أجور هؤلاء الذين يتلون كتابه ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله فقال فى شأنهم : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [3] وجاءت – أيضاً – بعد أن ذكر الحق – سبحانه – فى سورة الأحقاف أن لكل فريق من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند

(1)ينظر: النشر في القراءات العشر:٢/٢٩١.

(2)ينظر التفسير الكبير: ١٨/٧٠، وفى ظلال القرآن:٤/١٩٣١.

(3)فاطر: ٣٠.

الله يوم القيامة بأعمالهم . جاءت مؤكدة باللام فقال:﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾. [1] ولما كان الوفاء لفريقين مختلفين: مؤمن وكافر عبر بـ " الأعمال " كما فى آية سورة هود التى معنا، وآية الأحقاف، حيث حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، هذا بخلاف الوفاء فى جانب المؤمنين الصادقين فعبر بـ " الأجور " كما فى آية سورة فاطر. وقوله " إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " أكد الجملة بأكثر من مؤكد بـ " إنّ" واسمية الجملة وذلك لتأكيد علمه تعالى وأحاطته بكل صغير وكبير، وفصلت هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال فهي تعليل للتوفية، وفيها تهديد ووعيد لهؤلاء المكذبين المختلفين المرتابين، فيوفون جزاء عملهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ النحل: ١١١ ، فهذه الآية مسوقة لتصوير الإنسان يوم القيامة، وما يكون منه ، فيأتي يجادل عن نفسه مهتماً بالدفاع عنها دون التفات إلى غيره، وذلك للخلاص من عذاب الله – تعالى – وفى هذا اليوم تعطى كل نفس جزاءها وافياً غير منقوص، ولا ينفعها مجادلتها ودفاعها عن نفسها وإنما ينفعها عملها .

أسرار النظم وبلاغته :

قوله: " يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا " أي: اذكر يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته، ويعتذر عنها، لا يهمه شأن غيره، كل يقول نفسي نفسي، ففي قوله: " يومَ " إيجاز بحذف الفعل وتقديره: اذكر

(1)الأحقاف: ١٩ .

يومَ ... وتكون الجملة مستأنفة ، ويجوز أن يكون نصب " يوم " بقوله " رحيم " فى قوله " إن ربك من بعدها لغفور رحيم " [1] أي يغفر لهم ويرحمهم يوم القيامة بحيث لا يجدون أثراً لذنوبهم التى لا يخلو عنها غالب الناس، ويجدون رحمة من الله بهم يومئذ. [2] وقوله: " وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ" أي تعطى كل نفس جزاء عملها كاملاً غير منقوص وبنى الفعل " تُوَفَّى " للمفعول لتركيز الاهتمام على التوفية، فكل نفس تنال جزاءها كاملاً، ووصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين مع عدم المانع فقد اتفقتا في الخيرية لفظاً ومعنى. ووضع الظاهر فى قوله: "كُلُّ نَفْسٍ" موضع ضميره لتمكنه فى ذهن السامع، ولتكون الجملة مستقلة فتجرى مجرى المثل ". [3] وفى قوله: " ما عَمِلَتْ " إيجاز بحذف المضاف والتقدير: جزاء ما عملته ويحتمل أن يكون فيها مجاز مرسل حيث أطلق السبب وهو العمل وأراد المسبب عنه وهو الجزاء ، وفى ذلك دلالة على تيقن مجازاته، وآثر النظم الكريم تسمية الجزاء على الأعمال " توفياً " لبيان أن كل ما يعمله الإنسان فى دنياه مردود عليه فى أخراه ، فهو بمثابة دين يرد إليه فى الآخرة ، ويأخذ جزاء عمله وافياً . وقوله: " وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون " تأكيد لمعنى الجملة التى قبلها، لأن توفية الجزاء على العمل تستلزم كون تلك التوفية عدلاً ، فصرح بهذا اللازم بطريقة نفى ضده، وهو نفى الظلم عنهم ، وللتنبيه

(1)النحل: ١١٠.

(2)ينظر الكشاف: ٤٣١/٢ ، التحرير والتنوير: ٣٠١/١٤.

(3)المرجع السابق : ٣٠٢/١٤ .

على أن العدل من صفات الله – تعالى [1] ، وقريب من هذه الآية قوله تعالى فى سورة آل عمران بعدما بيّن أن كل من يقع منه غلّ فإنه يأتي بما غلّ به يوم القيامة قال: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ الآية : ١٦١ .

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الزمر: ١٠. ففي الآيات السابقة لما أجرى الثناء على المؤمنين بإقبالهم على عبادة الله فى أشدّ الآناء، وبشدة مراقبتهم إياه بالخوف والرجاء، وبتمييزهم بصفة العلم والعقل والتذكر، بخلاف حال المشركين فى ذلك كله ، أتبع ذلك بأمر رسول الله ﷺ بالإقبال على خطابهم للاستزادة من ثباتهم، ورباطة جأشهم، وبيان أن من أحسن منهم العمل فى الدنيا فله حسنة عظيمة فى الآخرة، وهى الجنة ، فإذا لم يتمكنوا من إقامة شعائر الله فى مكان فليهاجروا إلى آخر، وعليهم بالصبر، فجزاء الصابرين عظيم لا يحاط به. [2]

أسرار النظم وبلاغته :

قوله: " قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا " النداء خرج عن معناه الحقيقي ، والمراد به الاهتمام والاعتناء بشأن المأمور به . والتعريف بالإضافة فى قوله " يَا عِبَادِ" فيه تشريف وتكريم لهم، وذلك بإضافتهم إلى ضميره – سبحانه وتعالى – وفيه حضّ على امتثالهم ما يؤمرون به. والتعريف

(1)المرجع السابق : ٣٠٣/١٤ .

(2)ينظر التحرير والتنوير: ٣٥٢/٢٣ بتصرف.

بالموصولية فى قوله: " الَّذِينَ آمَنُوا " للإيماء إلى وجه بناء الخبر، فلإيمانهم وتقواهم كانت الجنة دارهم .

وقوله: " اتَّقُوا رَبَّكُمْ " أي داوموا واستمروا على تقواه، فالأمر خرج عن معناه الحقيقي والمراد به الثبوت والدوام عليه أو الزيادة منه، والحثّ على التجرد لطاعة الله، واجتناب الشكوك والأوهام، وهذا يشعر بأنهم قد نزل بهم من الأذى فى الدين ما يخشى عليهم معه أن يقصروا فى تقواهم. (١)

والتعريف فى قوله " رَبَّكُمْ " فيه تذكير بالنعمة والتفضل عليهم، فهو ربهم وخالقهم، ورازقهم، وإليه مرجعهم . وقوله: " لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ " أي: للمحسنين الجنة، وقدّم المسند " الَّذِينَ " على المسند إليه " حَسَنَةٌ " للتنبيه على أنه خبر لا نعت، وللاهتمام به ولبيان أنهم أحرياء بما يستحقونه من جزاء الآخرة وهو الجنة ، فإحسانهم فى الدنيا كان سبب دخولهم الجنة، وهذا – أيضاً – ما أفاده التعريف بالموصولية فى قوله " لِلَّذِينَ " ، وأفاد تقديم الخبر – أيضاً – الحصر ، فالجنة مقصورة عليهم ، ووضع الظاهر " لِلَّذِينَ " موضع ضميره ، فلم يقل : لكم ليشملهم وغيرهم ممن تحقق فيهم الإحسان فى الدنيا . وحذف المفعول فى قوله "أَحْسَنُوا " لإفادة العموم والشمول فيشمل الإحسان فى جميع الأمور. وبين قوله: " أَحْسَنُوا – و حَسَنَةٌ " جناس زاد المعنى حسناً وبهاءً. والتعريف بالإشارة فى قوله: " هَذِهِ الدُّنْيَا " لقصد إحضارها بعينها فى أذهان المخاطبين، الذين تيقن عندهم فناؤها وقلة متاعها.

(١)المرجع السابق نفسه وينظر حاشية الصاوي: ٣٠٧/٣.

ونكّر قوله:" حَسَنَةٌ" للتفخيم والتعظيم من شأنها ، فلا يصل العقل إلى بيان حقيقتها ودرجة كمالها وعظمها . وقوله: " وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ " وصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين ، وفى ذلك ترغيب وتعريض بالهجرة من مكة إلى الحبشة والصبر على مفارقة الأوطان لما فى ذلك من الهمّ والغمّ على النفس لا يقوى عليه إلا من ملك حظاً كبيراً من الصبر وقوة التحمل، وهذه الجملة معترضة لنفى ما قد يتعلل به من عدم القدرة على إقامة الأوامر واجتناب النواهي، ففيها تعريض بالحث على الهجرة فراراً بالدين من الفتن . وقوله:" إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ"خبر مؤكد مراد به التسلية لأهل البلاء، وتنشيط للعباد على مكابدة العبادات، وتحريض على ملازمة الطاعات وفى ذكر التوفية وإضافة الأجر إلى ضميرهم تكريم لهم، وتنبيه على أن المقتضى لذلك هو صبرهم، وأنهم يوفون أجورهم بصبرهم، كما وفى من قبلهم أجرهم بصبرهم (١)وأفاد ذلك – أيضاً – الالتفات من الخطاب فى قوله:" اتَّقُوا رَبَّكُمْ " إلى الغيبة فى قوله " إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ... " وهو تذييل يدل على عظم أجر الصابرين، وفى قوله:" أَجْرَهُم " استعارة تصريحية أصلية، حيث شبه الجزاء على العمل بالأجر ، وفى هذا إيماء بضمان الحصول عليه والاستحقاق له، وحث لهم على الجد والطاعة ابتغاء ما عند الله تعالى. وفى بناء الفعل " يُوَفَّى " للمفعول دلالة على تركيز الاهتمام على التوفية وإعطاء أجرهم وافياً . وقوله: " بِغَيْرِ حِسَابٍ " كناية عن الوفرة والتعظيم، لأن الشيء الكثير لا يتصدى

(١)ينظر روح المعاني: ٣٤٨/٢٣، ٣٤٩ .

لعده، والشيء العظيم لا يحاط بمقداره، فإن الإحاطة بالمقدار ضرب من الحساب، وذلك شأن ثواب الآخرة الذى لا يخطر على قلب بشر. [1]وفى قوله: " إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ... " قصر أفاد قصر توفية الأجر بغير حساب على الصابرين، قصراً إضافياً وذلك للمبالغة فى اتصافهم بالصبر وفى كثرة وعظم الأجر .

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ الزمر: ٧٠.فبعد أن فصّل الحق – سبحانه – ما فى يوم القيامة من أهوال، فذكر النفخ فى الصور، ووضع الكتاب، ومجيء الأنبياء للشهادة على أممهم، وأنه – تعالى – يقضى بينهم بالعدل، ذكر في هذه الآية أنه يجازى كل إنسان بما عمله وهو أعلم بعمل كل إنسان فليس بحاجة لكتاب أو شاهد ولكن تشهد الكتب عليهم إلزاماً للحجة.

أسرار النظم وبلاغته : قوله: " وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ " خبر مراد به التهديد والوعيد لكل من ظلم نفسه فعرضها لعذاب الله بسبب ظلمه، والفرح والسرور بتحقيق وعد الله فى جانب من آمن به، وعمل لهذا اليوم. وعبّر بالماضي " وفيت " عن المستقبل وذلك لتحقق وقوع التوفية من الله تعالى يوم القيامة، وجاء التعبير بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه وتأكيده فى سورة النور وذلك بعد أن شبه الحق – سبحانه – هيئة أعمال الكافرين يوم القيامة بهيئة سراب يظنه الظمآن أنه الماء وليس به ، فإذا جاءه وجد أرضاً لا ماء فيها ولا نفع فكذا أعمالهم فى الآخرة فقال: ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ الآية: ٣٩ ، أي وجد

أمر الله وقضاءه وحكمه ووعده فينال جزاء عمله جزءاً وافياً، ومن أوفى بعهده من الله ؟! وفى بناء الفعل للمفعول تركيز على أمر التوفية فى الجزاء، فهم يعطون حقهم كاملاً لا نقص فيه.

ونكّر قوله " نَفْسٍ " لإفادة العموم والشمول، فالتوفية لجميع الأنفس، وفى قوله: " ما عَمِلَتْ " إيجاز بحذف المضاف والتقدير: جزاء ما عملته ، فما عمله المرء لا يوفاه بعد عمله وإنما يوفى جزاءه. ووصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين، فقد اتفقتا في الخبرية لفظاً ومعنى، وكذا الوصل فى قوله:"وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ " واسمية الجملة تدل على ثبوت ودوام علمه تعالى – سبحانه فهو علام الغيوب. والآية من الاحتباك ، حيث ذكر ما عملت أولاً يدل على ما فعلت ثانياً، وذكر ما يفعلون ثانياً يدل على ما يعملون أولاً، وسره أن ما ذكر أوفق للمراد من نفى الظلم على حكم الوعد بالعدل، والفضل لأن فيه الجزاء على كل ما بنى على علم ". [1]

وبعد فقد وجدنا تآزر الألوان البلاغية في الآيات لبيان عظم الأجر والجزاء من الله تعالى.

(1)نظم الدرر : ٢٣/٥٦٤.

الخاتمـــــة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من نزلت عليه أعظم الرسالات وعلى آله وصحبه وسلم ... وبعد

فقد عشت فى رحاب آيات الوفاء فى القرآن الكريم ، أتـــدبرها ، وأنهل من معينها الفياض، وأقف على أسرارها وإعجاز نظمها، ووجدت أنها تشتمل على الكثير من الخصائص واللطائف البلاغية وكان منها ما يلي :

(١) غلب ارتباط الآيات التى ذكر فيها الوفاء بالعهد بالتقوى مما يـــدل على شدة التلازم والترابط بينهما، فلا يوفى بعهده مع الله أو مـــع الناس إلا متق .

(٢) غلب مجيئ المسند إليه مقدماً على خبره الفعلي وذلك بعـــد فعـــل الوفاء، وفى ذلك دلالة على تحقق الوفاء وتوكيده .

(٣) جاء لفظ العهد فى آيات الوفاء مفرداً، وفى ذلك دلالة أن عهد الله واحد ، فمن وفّى به فقد وفّى بجميع العهود من نذر ووزن وكيل وعقد وغير ذلك .

(٤) قلّ مجيئ التشبيه فى آيات الوفاء وغلب مجيئ الاستعارة وذلـــك لأن المقامات التي جاءت فيها آيات الوفاء تتطلب المبالغة فى بيان فضل الوفاء ، وبيان ما أعده الله لمن تخلق بهـــذا الخلـــق مـــن الثواب والأجر العظيم ، والاستعارة أوسع مجالاً وأرحب ميداناً فى هذا من التشبيه، وذلك لما فيها من دعوى الاتحاد .

(٥) كان للاستعارة بشتى أنواعها دور بارز فى توضيح المعنى المقصود من الآيات وذلك لما فيها من جمال التصوير، وحسن التعبير، وإبراز المعنوي في صورة المحسوس .

(٦) غلب مجيئ صيغة المضارع من الفعل " وفى " مقارنة مع غيره من بقية الصيغ وفى ذلك دلالة على تجدد وحدوث الوفاء واستمرار الجزاء .

(٧) كان للتقييد بالظرف والجار والمجرور وغير ذلك عظيم الأثر فى بيان فضل الوفاء، وعلو شأنه، وعظم جزائه .

(٨) تعاضدت وتآزرت فى آيات الوفاء جميع الألوان البلاغية، وذلك لبيان وتوضيح المعنى المراد، وجاءت في شكل وسبك بديع .

وبعد ... فهذا هو جهد المقلّ، فإن كنت قد وفقت فلله الفضل والمنة، وإن كان غير ذلك فالله أسأل المغفرة على تقصيرى، والسداد والتوفيق فى عملى، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور / محمد مصطفى محمود ليلة
مدرس البلاغة والنقد في الكلية

فهرس المراجع

- القرآن الكريم

١- أسباب النزول لأبي الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابوري، مطبعة الحلبى، القاهرة، ط ثانية، ١٩٦٨.

٢- الإعجاز في نظم القرآن. د/ محمود السيد شيخون – الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة – الأولى، ١٣٨٩هـ – ١٩٧٨م.

٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين أبى الخير عبد الله بن عمر البيضاوي، ت: ٧٩١هـ، ط. مصطفى الحلبي وأولاده بمصر – الثانية، ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م.

٤- البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى، ت: ٧٤٥هـ، ط. دار الفكر – بيروت، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

٥- بديع القرآن المجيد لابن أبي الإصبع المتوفى٦٥٤ هـ ت/حفني محمد شرف.ط ثانية دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

٦- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى وأثرها في الدراسات البلاغية، د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة بالقاهرة – الثانية، ١٩٨٨م.

٧- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبى الإصبع المصري، ت: ٦٥٤هـ، تح/ حفني محمد شرف، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م

٨- التحرير والتنوير للشيخ/ محمد الطاهر ابن عاشور، الناشر: دار سحنون للنشر التوزيع – تونس.
٩- التعبيرالقرآني. د / فاضل صالح السامرائي . ط . السادسة٢٠٠٩م. دار عمار-الأردن.
١٠-التعريفات للشريف الجرجانى، ت: ٨١٦هـ، ط. مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر.
١١-تفسير ابن عباس المسمى "تنوير المقياس من تفسير ابن عباس" لأبى طاهر محمد بن يعقوب الفيروزبادي، ت: ٨١٧هـ، ط. مصطفى البابى الحلبي بمصر – ثانية، ١٣٧٠هـ – ١٩٥١م.
١٢-تفسير أبى السعود المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز للقاضي لأبى السعود العمادي، ت: ٩٥٠هـ، ط. دار المصحف – القاهرة.
١٣-التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، د/عبد العظيم إبراهيم المطعنى، ط١ مكتبة وهبة ١٩٩٩م.
١٤-تفسير الجلالين للقرآن العظيم للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى، ت: ٩١١هـ، ط. مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر – ثالثة، ١٩٧٤هـ – ١٩٥٤م.
١٥-تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معانى التنزيل لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن، ت: ٧٢٥هـ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر – ثانية، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م

١٦-تفسير القرآن العظيم لأبى الفداء إسماعيل بن كثير، ت: ٧٧٤هـ، ط. دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبي – القاهرة.
١٧-التفسير القرآني للقرآن للشيخ/ عبد الكريم الخطيب، ط. دارالفكر العربي.
١٨-التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي، ت: ٦٠٦هـ، ط. دار الكتب العلمية – طهران – ثانية.
١٩-تفسير النسفى لأبى البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى، مطبعة المدني، ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦م
٢٠-تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي، تح/ محمد عبد الغنى حسن، ط. دار إحياء الكتب العربية.
٢١-تهذيب الأخلاق،لابن مسكويه، ط ثانية،دارالكتب العلمية، بيروت.١٩٨١م
٢٢-الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى، ت: ٦٧١هـ، ط. دار إحياء التراث العربي بيروت.
٢٣-حاشية الجمل المسماة "الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية" لسليمان بن عمر العجيلى الشهير بالجمل، ط. دار إحياء الكتب العربية بمصر.
٢٤-حاشية الشهاب المسماة "عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، ت: ١٠٦٩هـ، ط. دار صادر – بيروت.

٢٥-حاشية الصاوي على الجلالين للعلامة محمد الصاوي، ت: ١٢٤١هـ، الطبعة الأخيرة، راجع تصحيحها الشيخ/ على محمد الصباغ، ط. مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م.

٢٦-حاشية محيى الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، ط. المكتبة الإسلامية - تركيا.

٢٧-خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/ عبد العظيم المطعنى، الناشر: مكتبة وهبة بالقاهرة - الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٨-دلائل الإعجاز للشيخ/عبد القاهر الجرجاني، تح/ محمد رشيد رضل، ط دار المعرفة - بيروت ١٩٨١م.

٢٩-ديوان كعب بن زهير للإمام أبي سعيد الحسن بن الحسين العسكري، دار الكتاب العربي . بيروت .ط أولى ١٩٩٤م.

٣٠-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة شهاب الدين الألوسى، ط. إحياء التراث العربي - بيروت.

٣١-الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تح/أحمد عبد الغفور، القاهرة، ١٩٨٢م.

٣٢-صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبوعبد الله البخاري الجعفى ت ٢٥٦هـ، تح د/ مصطفى ديب أغا، دار ابن كثير _ اليمامة _ بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ _ ١٩٨٧م، وطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده _بمصر.

٣٣-صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيرى النيسابورى ت ٢٦١هـ، تح/ محمد فؤاد عبد الباقي، دارإحياء التراث العربي بيروت

٣٤-فتح البيان في مقاصد القرآن للعلامة صديق خان ت١٣٠٧ هـ. ط دار الفكر العربي.

٣٥-فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام الشوكانى، ت: ١٢٥٠هـ، ط. مصطفى البابى الحلبي بمصر - ثانية، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

٣٦-في ظلال القرآن للشيخ/ سيد قطب، ط. دار الشروق - الثالثة عشرة - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٧-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للعلامة الزمخشري، ت: ٥٣٨هـ، ط. دار الفكر.

٣٨-الكناية في القرآن الكريم رسالة دكتوراه للباحث/علي عبد الرحمن حسين بكلية اللغة العربية بالقاهرة ١٩٩٦م.

٣٩-لباب النقول في أسباب النزول للسيوطى، ط دار التقوى.

٤٠-لسان العرب لابن منظور، تح/ عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلى، ط. دار المعارف بالقاهرة.

٤١- مجمع البيان في تفسير القرآن لأبى على الفضل بن الحسن الطبرسى، ط. دار إحياء التراث العربي - أولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٤٢-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسى، تح/ عبد السلام عبد الشافي، ط دار الكتب العلمية، بيروت.١٩٩٣م.
٤٣-المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازانى ط. المكتبة الأزهرية للتراث.
٤٤-المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار الحديث – القاهرة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.
٤٥-المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى، تح/ محمد سيد كيلاني، ط. دار المعرفة – بيروت – لبنان.
٤٦-مقاييس اللغة لأبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا،تح/عبد السلام محمد هارون، دار إحياء الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٣٦٨ هـ .
٤٧-ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل.لأحمد بن إبراهيم الغرناطى ت/سعيد الفلاح.دار الغرب الإسلامي ١٩٨٤م.
٤٨-النشر في القراءات العشر، تأليف/ محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري،ت: ٨٣٣هـ، تح/ على محمد الضباع، ط. مكتبة المثنى ببغداد.
٤٩-نظرات في البيان. د/عبد الرحمن الكردي ط/ المؤلف.

٥٠-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعى، ت: ٨٨٥هـ، تح/ عبد الرازق غالب المهدى، ط. دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

فهرس الموضوعات

الموضوع
المقدمة.
التمهيد .
تعريف الوفاء.
حديث القرآن عن الوفاء.
المبحث الأول: الوفاء بالعهد.
المبحث الثاني: الوفاء بالكيل.
المبحث الثالث: الوفاء بالنذر.
المبحث الرابع: الوفاء بالأجر والجزاء.
الخاتمة.
المراجع.
فهرس الموضوعات.